

مصطفى محمود

# الخروج من التابوت



كانت العربة تخوض شوارع ضيقة مليئة بالحفر وبين حين  
وآخر يتصاعد الرشاش فيغرق النوافذ وينزل السائق لينتزع العربة  
من حفرة عميقة مليئة بماء المطر ، ثم يعود ليكركر في طريقه ونحن  
نتخضض في أماكننا والعرق يسيل على جباهنا من شدة الرطوبة ..  
وكان الدليل « كاكوما » إلى جوارى يصف المناظر التي نمر بها  
ويشير بيده قائلا :

هذه دلي عاصمة الهند القديمة شيدت سنة ١٦٣٨ .. وهذه العائرا  
التي تراها يعود تاريخها لأكثر من ثلاثمائة عام وهذا النهر الذي  
يتهادى أمامنا هو نهر « جينا » أحد أفرع نهر الكنجج ..

وكان على الشاطئ أمامي مئات المنود الفقراء وقد افترشوا  
الأرض ونصبوا خياماً مهلهلة من الخرق القديمة وكان الذباب والقذارة  
في كل مكان حيناً أرسلت بصري ..

وساءلت نفسي .. من أين تأتي طاغور بكل الجمال والنقاء  
والشاعرية التي قطرها في قصائده ودواوينه كالرحيق المسكر ..

كانت العربية تخوض شوارع ضيقة مليئة بالحفر وبين حين وآخر يتصاعد الرشاش فيغرق النوافذ وينزل السائق لينتزع العربية من حفرة عميقة مليئة بماء المطر ، ثم يعود ليكركر في طريقه ونحن ننخفض في أماكننا والعرق يسيل على جباهنا من شدة الرطوبة .. وكان الدليل « كاكوما » إلى جوارى يصف المناظر التي نمر بها ويشير بيده قائلا :

هذه دلي عاصمة الهند القديمة شيدت سنة ١٦٣٨ .. وهذه العمار التي تراها يعود تاريخها لأكثر من ثلاثمائة عام وهذا النهر الذي يتهادى أمامنا هو نهر « جينا » أحد أفرع نهر الكنج ..

وكان على الشاطئ « أمامي مئات الخنود الفقراء وقد افترشوا الأرض ونصبوا خياماً مهلهلة من الخرق القديمة وكان الذباب والقدارة في كل مكان حيثما أرسلت بصرى ..

وساءلت نفسي .. من أين أتى طافور بكل الجمال والتقاء والشاعرية التي قطرها في قصائده ودواوينه كالرحيق المسكر ..

كانت الصورة الأولى التي طالعني عن الهند صورة حزينه تعيسة  
ولم تكن تبدو لي بالمكان المختار الذي يلهم الشاعر بمثل هذه الأبيات  
الساوية .

وكان اليوم هو اليوم الأول في الاحتفالات المثوية بذكرى  
طاغور .

والظاهر أني سرحت طويلا في تساؤلاتي لأن صوت الدليل  
« كاكوما » أيقظني وهو يصف قوساً كبيراً أثرياً وبشير بيده إلى  
نقوش مكتوبة بلغة سنسكريتية .

ولم أكن أسمع وإنما كنت أصغي بكل حواسي إلى عويل ناي  
يعزف عن قرب .

وأيقظ في صوت الناي تلك الوشائج الغامضة التي تضم كل  
الشرقيين .. وشعرت كأنما أنا أنتقل في وطني .. وكأنما أستمع إلى  
أحزاني .. وكأنما هذه الوجوه الدامعة وهذه الأيدي المعروقة التي  
تمتد للشحن هي الأيدي التي أعرفها في الحسين والسيدة وأزفة القاهرة  
القديمة .

لم أفق إلا على صوت كاكوما وهو يصيح .

— لقد وصلنا .. هذه هي القاعة ..

ونظرت إلى الأثر الجليل الذي يرتفع أمامي .

هذه إذن هي القاعة الحمراء ..

أخيراً .. أنا في الهند ..

وكنت أتأمل البناء الأسطوري الشامخ وأشعر أني عدت ألف  
سنة إلى الوراء وعلى عتبات البناء كان هناك زحام .. وكانت هناك  
حلقة من الهند حول فقير هندي يجلس في الوسط على ملاء بيضاء  
وقد عقد يديه على صدره ومضى يتمم وقد أغمض عينيه ..

ونظرت إلى دليل أسأله عما يجري ولكنني فوجئت به يشدني في  
الشنزاز ..

— هذه شعودة .. لقد جاء الوقت لتتخلص من هذه الشعودة ..

ولكن الفقير الهندي بدأ يرتفع عن الأرض .. بدأ يطير في الهواء  
دون أن تمسك به يده وتجمد الدم في عروقي وأسرعرت إلى الحلقة  
في فضول مسحور ..

مددت يدي تحت الرجل وقد خيل لي أن هناك أعمدة خفية  
تحمله .. ولكن لم يكن هناك شيء ..

كان الرجل يفتش الملاء في الهواء وينام عليها في هدوء وكأنها  
بساط سلتيان ، وكاكوما زال يشلني من يدي ليدخل في القاعة  
هائلاً ..

— هذه شعودة .. شعودة لا تستحق منك أي اهتمام ..

.. ولكن هذا الفقير عنده من العلم ما يفوق علم كل الذين يتنون  
الطائرات والتفاثات ..

.. سيدى .. لإننا شعب فقير جداً .. وقد رأيت بنفسك القذى  
والأقذار والأدران والأوبئة والأمراض فى كل مكان .. وهذا  
الإغراق فى القيديات والغرامض هو الذى قعد بنا طوال هذه القرون ..  
.. ولكن هذه معجزة .

.. إذا كان الرجل يأتى بالمعجزات فلماذا لم ينقذنا وينقذ نفسه  
من اغبيات .. إن أول من يموت فى الجاعات هم هؤلاء الفقراء  
المشعوذين .. سيدى إنها مأساة .. أنت لا تعرف الهند .. إن المعجزة  
الحقيقية هى ما نصنعه الآن .. نحن الآن نصنع الصلب والآلات  
الحديثة ونعلم أولادنا فى المدارس .. ماذا فعل صاحبك بعد أن أتى  
بمعجزته .. إنه يشحذ .. انظر إنه يشحذ ..

وكان الفقير الهندى قد عقد ذراعيه على صدره وراح يتلقى  
الروبيات التى يلقى بها المتفرجون فى حجره دون أن يتلقى بحرف ..  
وشدنى كاكوما من يدى وصعدنى على درج القلعة .. وراح  
يصف لى النقوش على السقف والجدران ويتكلم كلاماً كثيراً عن  
تاريخ القلعة وعن الذى بناها وعن العصور التى تعاقبت عليها ..  
ولكنى لم أكن أسمع .. كنت ما زلت أفكر فى الرجل الذى طار ..

.. ولكنى لا أرى فى الأمر شعوضة .. إن للرجل قدرة خارقة ..  
هذه معجزة واضحة لكل ذى عينين ..

.. أين المعجزة .. أين القدرة الخارقة .. إذا كان للرجل تلك  
القدرة الخارقة فلماذا لا يعمل بها ليأكل بدلاً من حياة الجوع والمرض  
والفقر التى يعيشها .

.. ولكنه يطير .. ألا ترى ... إنه يطير فى الهواء ..  
.. إن الطائرة تطير أسرع منه .. إننا فى عصر الصواريخ والتفاثات  
والأقمار الصناعية .. إنه مواصلة متخلفة جداً ..

.. ولكنى يأتى بشيء خارق يخالف جميع القوانين ..  
وكان الفقير الهندى قد بدأ يهبط بهدوء إلى الأرض وكأنه يهبط  
بمظلة .. حتى استقرت ملاءته على الأرض .. وكان ما يزال على حاله  
مغمض العينين يتمتم .. بينما راح الدليل يبرطم فى ضيق واضح ..  
.. ألا ترى أنه لو عمل وفقاً للقوانين لوصل إلى نتيجة أحسن  
وأضمن . إن إخوانه الهند الذين دخلوا كليات الهندسة والطيران  
يخترعون أشياء أحسن .. إننا الآن فى عصر العلم .. ولا شيء يؤخر  
الهند سوى هؤلاء المشعوذين .. إنه لأمر محجل .. أمر مشين .. العالم  
يتقدم مسرعاً ليغزو الفضاء ونحن ما زلنا فى عصر الحوامة نأكل  
التعابين ونمشى على المسامير ونخطو على الهواء ..

جلس على ملأه وعقد يديه على صدره وأغمض عينيه وطار.. هكذا  
ببساطة .. بدون مروحة وبدون موتور وبدون وقود .. بمجرد  
الإرادة .. بقوة العقل الخالص ..

أى إرادة خارقة نافذة وراء هاتين العينين المغمضتين ..

كان منطق الدليل في غضبه وثورته يبدو شاحياً .. ولم تكن  
كل هذه الثورة تعنى لى شيئاً أكثر من غضبة قومية في غير محلها ..  
لأنه يتكلم عن العلم .. أى علم ؟ .. وأماننا علم فوق كل العلوم .  
وماذا يضير الفقير في أنه يشحذ .. وما ذنبه في أن الحظوظ  
والأرزاق في هذه الدنيا موزعة .. هكذا ..

كنت أرى الرجل وقد عقد يديه على صدره وطار .. وطار ..  
وأقول لنفسى .. كيف ..

وتسرى في بدنى الرعدة ..

هل يمكن .. أن يخرق القانوة الطبيعي بهذه البساطة ..

أم أنه لا قانون هناك ..

أم أن الإرادة هي القانون الأعلى فوق جميع القوانين ..

ولكنى أريد الطيران فلا أستطيع الطيران ، ولا أستطيع أن  
أرفع نفسى إلا قفزاً بقوة العضلات ثم أعود فأقع على الأرض

قليل الحيلة مهيب الساق .. بيننا الرجل يتمدد في الهواء مغمض  
العينين وكأنه يسبح على بحر من الزئبق ..

إنه يطير في وضوح النهار ..

عرياناً إلا من خرقه لانسكاد تسره ، ممدداً على الهواء كأنه  
ممدد على فراشه .

لاحيلة هناك ولا شعودة ..

كيف ! ؟ ..

كيف ! ؟ ..

أريد أحداً أسأله وأكلمه وأناقشه وأفصح له بحيرتى ..

الدليل الذى يرافقتى يكلمنى عن القلعة وعن ماضى الهندس  
المذهل .. وكلما عدت إلى الموضوع أشاح بيديه ..

مالى أنا وهذه الحجارة إذا كانت من رخام أو من مرمر ..

هذه القلعة رفعتها إنسان بالجهد الجهد والعناء والعرق ..

ولكن هناك إنسان رفع نفسه .. تمدد على الأرض وطار ..  
دون أن يبذل جهداً .. ودون أن تنقبض له عضلة .. استرخى  
في أطمئنان كأنه لا يفعل شيئاً ..

ثم فعل مستحيلاً ..

طول الوقت وأنا أعدد درجات القلعة ، وأنا أدور في شرفاتها .

وأنا أعود في طريق عبر الشوارع الضيقة المليئة بالحفر ..

وأنا أدخل نيودلهي ..

وأنا أصل إلى فندق أشوكا حيث أنزل مع الوفد الذي أرافقة ..

وأنا أتناول عشاءى ..

وأنا أضع رأسى على فراشى لأنام ..

وأنا مطارد برؤيا لانفارقنى ..

رؤيا رجل تمسد على الأرض وأعمى عينيه في استرخاء

وطار .. هل كنت أحلم ..

لا .. أنا عائد لتوى من رحلة نهار شاقة .. أنا يفتان .. حوامى

كلها حاضرة ..

لم أستطع النوم ..

قمت من فراشى وفتحت النافذة ..

وقفت أننسم هواء نوفمبر .. الرقيق .. فكرت طويلاً ..

كل ما قرأت من علوم لم يسعنى ..

على كفنش آثار ودارس لغة المصرية القديمة ..

كنت قد بدأت أكتب الأوراق الأولى في رسالة دكتوراه

في اللغة الغير وعليقية ..

كل هذا لاشئ ..

أنا لا أفهم شيئاً ..

لقد عشت طول حياتى جاهلاً ..

ارتديت ثيابى ونزلت بهو القندق ..

كانت الساعة متأخرة من الليل وكان البهوخالباً .. إلا من شيخ

واحد يجلس في ركن يشرب ..

إنه صديقنا أمري خان المرافق لوفدنا ( يبدو أن اسمه محرف

من عمرو خان ) .. وشعرت بالراحة وأنا أنقطع إلى وجهه الرقيق

المنقف ..

أخيراً وجدت من يستمع إلى ويفهمنى ..

وكان الرجل ينظر إلى بائساعة تنسج في ترحيب كلما اقتربت

منه ..

مد يديه مرحباً وقال :

— أرجو أن تكون مستريحاً في الفندق .. يبدو أنك لم تستطع النوم .. هل الجو يضايقك .. إن شهر نوفمبر ألطف الشهور جواً عندنا ..

— إنه ليس شيئاً خاصاً بالنوم أو الحر أو الفندق .. إلى .. إلى لا أعرف ماذا أقول .. لقد شاهدت شيئاً حيرني .. لقد كنت اليوم في القلعة الحمراء ..

ورأيت بهتشم ويردف مقاطعاً في أدب ..

— إنه الفقير « براما واجيسوارا » .. أنا أعرف ..

— إنك لن تقول إنه مشعوذ كما قال الدليل .. لقد رأيته بعيني هاتين ..

— لا ، إنه ليس مشعوذاً .. إن بعض الشباب العصري عندنا أصبح يكره هؤلاء الفقراء لأنهم ينشرون حولهم جواً من الإيمان بالروحية .. وهم يشكلون فيما بينهم جمعيات لمحاربتهم .. وأنت تعرف أن مهماتنا غاندى قتل بيد واحد من هؤلاء المتعصبين .. ولا بد أن ذلك كان من هؤلاء الشبان .. إنها القصة المعادة .. قصة الصراع بين الجديده والقديم ..

— ولكن هل يمكن .. هل يمكن أن يفعلها .. أن يشهد على الأرض ويعطير .. لقد رأيته بعيني .. إنها لا يمكن أن تكون خدعة .. — إنها ليست خدعة أنا أعرف براما واجيسوارا .. وهو صديق .. لقد رأيته يذفن نفسه حياً ويعيش تحت التراب أياماً ..

ورأيت يتحكم في نبضات قلبه فيخلص سريعاً إلى ثلاثين نبضة في الدقيقة ويرتفع بها إلى مائة بمجرد الإدارة .. ورأيت يتحكم في تمدد شرايينه وانقباضها فيبدل لك يده فإذا هي حراء محتقة ويمد لك الأخرى فإذا هي صفراء غاص منها الدم .. إنه رجل عجيب .. عنده هبات غير طبيعية .. وهذا كل ما يمكن قوله .. — ولكن كيف .. كيف ؟

— هناك أشياء لا نعرفها ويبدو أن عقولنا تحك قوى ذاتية تستطيع أن تؤثر بها في الأشياء من غير طريق الجسد والحواس .. لقد اكتشفنا قوة البخار والكهرباء والذرة ولكني أعتقد أننا يوماً ما سوف نصيب مصادر أكثر خطيراً للقوة .. هي قوة العقل نفسه .. — تقصد الروح ..

— لا أدري .. سمها الروح أو العقل أو النفس .. إنها كلها تؤدي إلى الكثير من الخلط .. — قل لي بصراحة هل تعتقد ببقاء الإنسان بعد موته ..

— إذا كانت الشعمة حينئذ تنطفئ ، يظل نورها يرتحل ملايين السنين في الفضاء حيث يمكن أن يانطق ويشاهد .. وهذا شأن شعمة .. فما بالك بالإنسان تنطفئ حياته .. كيف تستبعد أن يكون له بقاء بعد موته .. أنظر إلى السماء ترى بين النجوم الدوامع نجوماً تتألق ، يقول لك الفلكيون أن نورها انطلق من ملايين السنين .. وهذا شأن المادة باقية أبداً .. تتحول وتتحول ولكنها لا تفتني فما بالك بالإنسان وهو أرقى مادة في الوجود ..



ثم تعال لنفكر معاً .. ما المادة التي يطعن بها الماديون .. إنها لم تعد في ضوء العلم المادة الصلبة التي نعرفها وإنما تبحرت إلى خلاء متشورة فيه ذرات .. والذرات قال لنا العلم أيضاً إنها خلاء متشورة فيه ألكترونات تدور حول أنوية من البروتونات .. وما الألكترونات والبروتونات في النهاية إلا شحنات كهربائية .. أى طاقة .. مجرد طاقة .. إذن فالمادة طاقة .. نشاط .. مجرد نشاط موجي .. مجرد حادثة تجري في الفضاء المطلق ..

وتوقف أمرى خان ليرثشف رشفة من كأسه ، ثم صفق للجرسون ليطلب لى كأساً .. ولكنى طلبت كوباً من عصير الليمون ..

كنت أريد أن أحتفظ بعقل يقظاً متفتحاً لكل كلمة بقولها .. وأردف أمرى خان وهو يصب لنفسه كأساً ثانية ..

— إذا كنت قرأت النسبية فأنت تعرف أن أينشتين قال إن كل جسم له مجال حوله وأن هناك بعداً رابعاً غير مرئي للمادة هو الزمن ، نعرفه بالحدس والتخمين ، وتقتصر حواسنا المباشرة عن إدراكه .. فلماذا تعجب إذا قال لك علماء الروح إن الجسم الإنساني له مجال مغناطيسى حوله وأن الروح تعيش في العالم الرابع الأبعاد وتدركه .. وأنها ذات طبيعة موجية تمكنها من اختراق الحجب .. وأنها حادثة من الحوادث التي تجري فينا وحولنا في الفضاء المطلق ..

إننا نرى الأشعة البنفسجية ولا نرى الأشعة فوق البنفسجية ، لأن أمواجها أقصر وذبذبها أسرع .. وعلم الطبيعة يقول لنا أنه كلما كانت الذبذبة أسرع والموجة أقصر فإنها تكون أكثر نفاذاً واختراقاً للمواد وأكثر خفاء على أحواس .. وما الأرواح إلا هذه الخفاوات الموجية ذات الذبذبة العالية .. فهي تخترقنا وهي فينا وهي حولنا ونحن لا نسمعها ولا نراها ..

وليس هناك ما يدعون أن نتصور أنه لا توجد بين أحوال الأمواج والذبذبات إلا الأمواج والذبذبات التي أدركناها بمقاييسنا .. والطبيعي أن نتصور أن هناك مراتب ودرجات من الذبذبة لا نهاية لها ..

والنسبية تقول لنا أننا لو سرتنا بسرعة الضوء لرأينا شعاع الضوء الذي يسير بجانبنا له ملمس ومظهر المادة الصلبة وكأنه قصب من حديد ..

وربما لو سرتنا بهذه السرعة لرأينا الأرواح أجساماً متناقلة ملموسة كأجسامنا ..

إن ما يظهر لنا من أمر هذا الكون يتوقف على الموقف النسبي الذي نلاحظ منه الأشياء والحقيقة يمكن أن تتخذ ألف شكل لآعيننا إذا اتخذنا ألف موقف نلاحظها منه .. نقطة الماء إذا نظرنا إليها بالعين غير نقطة الماء إذا نظرنا إليها بالميكروسكوب غير نقطة الماء إذا نظرنا إلى بخارها بالإسبكترو سكوب ..



إن شهادة الخواص سوف تظل تنقل لنا مراتب مختلفة من الحقيقة كلها نسبية بحسب الظروف التي نشاهدها فيها ..

وسكت أُمري خان هذه المرة طويلاً وراح يهز الكأس بما فيه من قطع الثلج العائجة ..

وكننت أنا طول الوقت مشغولاً بكل كلمة قالها ..

ثم قطع الصمت قائلاً :

— ألا توافقني أن هناك أشياء كثيرة لا نعرفها في هذه الدنيا ..

— أنت محق ..

— أنت كعالم آثار مصري عشت في القرون البائدة وعاشت

أقواماً ونظماً وعصوراً عفا عليها التاريخ... ألم تشعر مرة وأنت تقرأ

مخطوطاً من البردي أنك تلمس حقيقة إنسانية ما زالت تنفس

حولك .. ألم يعتقد قدماء المصريين في البعث بعد الموت ..

— نعم لقد اعتقدوا بالإله الواحد وبالروح وبالبعث ..

— دون أن ينزل عليهم دين ..

— نعم ..

— وكان هذا حال أكثر الأمم بدائية وأكثر الأمم حضارة ..

— نعم ..

وابتسم أمرى حان حتى بدت أسنانه البيضاء ثم ضحك قائلاً :

— ثم أقل لك أن المعركة تدور وتدور ثم تنتهى إلى مجرد خلافات  
إحجية .. لن أخيب أملك .. ولن أدور بك فى جدل بيزنطى .. اعتبرنى  
صاحب نظرية فى المادية الجديدة .. مادية رحبت حتى اتسعت لمعانى  
الروح والجسد .. سيدى فى صحنى ..

ورفع كأسه مردفاً :

— لن تتعارك على مجرد خلافات إحجية ..

وشعرت فى تلك اللحظة أنه يحدث جذاب حقاً وأنى لم أنكبد  
مشقة السفر إلى الهند عبثاً .. فها هنا صديق نادر سوف أستمع  
بمرقته طوبى الرحمة ..

وصارحته بحجتي . فاحمر وجهه تواضعاً ولم يرد ..  
قلت له :

— إن أمل الوحيد الذى أرجو أن تحققه لى فى بلدك أن تعرفنى  
على صديقك الفقير « براهما واجيسوارا » ..  
.. هذا . ثم سيجب .. اعتبر طلبك مجاباً .. غداً بعد الاحتفالات  
بنتى بالبراهما واجيسوارا ..

— ألا يدل هذا على أن وجود الروح حقيقة بديهية لا تحتاج  
إلى أعمال عقل وأنها أمر مفروغ منه وبداهة من بداهات الفطرة ..  
ألا تبدو هذه الحقيقة غريبة ..

ولقد كانت تبدو هذه الحقيقة غريبة بالفعل ..  
وسقط بيننا حاجز الصمت من جديد ..

ولكننا كنا أشد ما نكون تعاطفاً واتصالاً فى صمتنا وكأننا  
نتحاطب كلان بلغة مبهوسة . ومر وقت لم تكن نسمع فيه إلا  
خشخشة التسم فى الحديقة وطقطة الثلج فى كأس أمرى حان  
وكانت هناك فكرة تشغلنى وتلح على طول الوقت ..

قلت لصديق .

— كلامك عن الروح وإن دل على أنك تؤمن بوجودها إلا  
أنه يدل أيضاً .. وهذا عجيب .. على أنك لا تؤمن بالروحانية على  
الإطلاق ..

— لا أفهم ماذا تعنى ..

— كلامك عن الروح بأنها أمواج على درجة عالية من التذبذبة  
معنى أنك تعتقد أن الروح مادة ولكنها مدة أكثر لطفاً وشذوبة  
من مادتنا .. فأنت إذن لست من أنصار الروحانية .. وما تقول  
به هو لون من المادية .. لنسبها المادية الجديدة ..

— لا شأن لى بالاحتفالات .. لقد جئت من يادى طالباً الجلوس  
بين يدى البراهما .. إنه كل شغل وشاغلى من اليوم ..  
ورأيتہ يتسم ابتسامته الراضعة ويقوم عيياً ..

— لك ما تشاء .. أرجو أن تمام جيداً القيلة لتتحمل أعصابك  
ما سوف تراه غداً فى حضرة البراهما .. ولقاءنا غداً فى الصباح  
الباكر ..  
وضم كفيه ورفعهما إلى أعلى جبهته علامة وداع ..  
وافترقا ..

— إن براهما واجيسوارا ليس شحاذاً جاهلاً كما صورلك ذلك  
إنه خريج أوكسفورد ويتحدث الإنجليزية بطلاقة ويعيط بالفلسفة  
الغربية وآدابها إحاطة متخصص وهو عضو فى جمعية مارلبورن الروحية  
لمندن وله رسالة قيمة فى الرياضيات العليا ..  
— ولكننا نهاية عجيبة تلك التى وصل إليها البراهما بعد طول  
دراسته وتفلسفه ..

— إنه الآن يعيش فى كهف بالجبل وحيداً يصلى طول النهار  
وفى وقت الظهيرة ينزل إلى الساحة أمام القلعة الحمراء ليطالع  
ناس على الحقيقة ..

— لقد دفع ثمناً كبيراً في سبيل الوصول إلى هذه الحقيقة ..  
حتى الاحترام لم يحصل عليه .. فيها هو أحد مواطنيه ينظر إليه شلواً  
كما ينظر إلى حشرة عالقة بسترته ..

— يبدو لي أنه لم يعد يتم بهذا الاحترام التقليدي وأنه يتطلع إلى  
مثل أخرى غير المثل التي نتطلع إليها في حياتنا العادية .

— إن كل ما يطلبه من الدنيا هو خبز كفافه .. وأن يوصل كلمته  
إلى الدنيا ويعمى ..

وأثناء صعودنا الجبل كان يمر بنا أفراد طائفة السيخ بشعورهم  
المرسلة وعربات الركشا يمرها فقراء الغنود .. والثيران والجواميس  
في أعناقها الأجراس .. والأطفال عرايا يستحمون في الحفر التي  
ملأها المطر ..

وكان هواء الجبل يرق ويشف كلها صعدنا وتقل ما فيه من  
رطوبة ... ويعبق بروائح الأزهار .

وكانت الطيور الملونة ترقف فوق رؤوسنا من كل جنس ..  
والقروود تقفز طلبقة على الأشجار وتتخاطف ثمار الجوز ..

وكانت في الطبيعة بكاره وعذرية تميز القلب ..

وأمام فوهة كهف نزلت عليه تعازيش الأشجار توقف صديق

هذه ... لكن إبراهيم وحيد ..

وأمر يربص به برقرق وحسن برنج به ريش خدمته ونحسب  
... إلى ...

وعلى بعد خطوات أماناً كان يجلس إبراهيم ، عينه مغمضات  
... على صابره وشفاه تلمتن بصلاة خافتة .

وفتح عينيه ببطء حيناً اقتربنا منه .

وضم أرمي خان كفيه ورفعهما إلى أعلى في تحية سلام وقدمي  
... .

صديق الدكتور توفيق ، من القهرة ..

ورفع إبراهيم كفيه مضمومتين إلى أعلى يميني همساً بالنجارية  
... يمة :

... مرحباً بك في بلادنا .

وعب إبراهيم لحظة في داخل كهفه ثم عد بحسن عن يديه  
... قه حصره ، من نور في لموز عليها بندق ولوز وحسن قدمها إلى ..

... تعضل ... أرجو أن تكون بلادنا قد أعجبتك ..

- إن أروع ما في الهند هو براهما وإجيسوارا ..

- عفواً تلك تقصد أنتس ما في الهند .. لقد بدأت من أسفل السلم .. وهذا طبيعي على أى حال ..

- بل بدأت من أعلى السلم ..

- هذا إطرأ لا أفهم له مبرراً ..

وكان البندق مملحاً وعليه شطة وبدأت أسعل وأعاني من عطش شديد ، وقال البراهما وهو يقودني من يدي :

- هنا بقر قرية .. مياهها عذبة باردة شافية .. دعني أساعدك ..

وغاب في الداخل لحظة وعاد يحمل جرة ليملاها .. وخرجنا نحن الثلاثة إلى ناحية البئر ..

وكانت بئراً عميقة تنحدر إليها المياه في جداول رفيعة من السيول التي تهب على قمة الجبل .. وكانت للبئر سلام تهب إلى القاع .. درجاتها منحوتة في الصخر ..

وكانت البئر مليئة لحافتها من السيول التي نزلت منذ أيام .. وكانت مياهها شفاقة تكشف عن قاع بعيد غائر مرصع بالحصى ..

ورأيت البراهما يحمل الجرة وينزل درجة درجة في هدوء وهو يقول إن مياه القاع هي أطهر ما في البئر لأنها بعيدة عن الحشرات

وهو لا يردّها الضياع وأنه سيملائي الجرة من ماء القاع ..  
والآن صوّلت لوقت ينزل في هدوء درجة درجة حتى غمر الماء صدره ثم عقه ثم رأسه ثم غطاه تماماً وهو ما زال ينزل في هدوء وكأنه ينزل في بدروم نادى ليلي ..

هل جن الرجل ؟

وأمسكت بصديق أعتف به .. البراهما غرق .. البراهما أغرق نفسه في البئر ..

وكان صديقي يصير يدي في هدوء ويشتم .. وأنا أصرخ :

كف تفعل .. كفا هكذا لا تفعل شيئاً وأرحل يعرف

وأمرني حين جيب في هدوء وهو يشير إلى البئر

صبر به لا يعرف .. به مار .. يهبط في هدوء تحت الماء .. لا يصعد .. به يعرف طريقه جيداً كأنه في بيته ..

ونظرت إلى البئر ..

كان البراهما ما يزال ينزل درجة درجة في هدوء .. حتى بلغ القاع فجلس القرفصاء في هدوء وأغمض عينيه وأغرق في الصلاة ونسى كل شيء .. ثم سكنت حركته تماماً وصرخت :

- البراهما مات .. غرقه .. اختنق .. لماذا تحملته هكذا ولا تفعل شيئاً ..

وأجاب أمرى خان في هدوء ، وهو يحمل في البئر وينظر إلى  
ساعته :

— ليراهم يصلي بقبه .. هذه عادته دائماً .. يصل في كل مكان  
تحت الماء .. وفوق الأرض .. وفوق الهواء ..

— ولكن هذا مستحيل .. إنه رجل أخرق .. إنه يخفتك هكذا  
وإن هو تحت الماء حيث لا يوجد أكسجين بنفسه .. إن الجسم  
لا يستطيع أن يعيش بدون أكسجين إلا ثوان معدودة .. هذه قوانين  
بيولوجية ..

— هذه قوانينك وقوانيني نحن الذين ما زلنا في أولى ابتدائي في  
مدرسة الأسرار .. انظر إلى ساعتك وستعلم كم سيق البراهما تحت  
الماء بدون أكسجين ..

ونظرت إلى ساعتي في رعب .. كانت قد مرت دقيقتان منذ  
هبوطه تحت الماء وكان مقرب الدقائق يمشي ببطء ويزحف زحفاً  
على المينا البيضاء .. وكنت أرتجف من الخوف وقد تثلجت أطراف ..  
خمس دقائق .. عشر دقائق .. وهمس أمرى خان .

— نستطيع أن نجلس فلسنا في عجلة من أمرنا .. ومثل هذه  
الصلوات تطول عادة ..

وشدني من ذراعي وأجلسني بجواره على حافة البئر وهمس عاتياً  
حيناً رأي أني أرتجف :

ثم فُمن بك حب .. ثم حبه حتى تكون في حالة عصبية  
..

— إن ما أراه هو الجنون بعينه ..

ب ما تراه هي معجزة العقل وليست معجزة الجنون .. إنك  
في قدرة العقل الفاتكة على إيقاف كل عمليات الحياة والسيطرة عليها  
بعض ..

وحس كيف يتحسن .. فقد مضت خمس عشرة دقيقة ..  
بعض .. لكن لا يكون حب .. هذه جريمة القتل .. لا من عمن  
ش ..

وكم قد استمر من هذا القتل الذي لا حدود له .. حين  
تبعني بجمع عجائب حبه .. بيولوجية هي .. لا أدرج من لأكسجين  
إلا قادراً سبياً تافهاً .. أقل مما تحتاجه سمكة .. وهو يحصل الآن  
على هذه الكمية من الأكسجين الذائب في الماء ويمتصها عن طريق  
جلده .. مثل جنين في بطن أمه .

— هذه جريمة القتل .. أنت تهذي .

وهزت رأسه واستبدني الخزع .

وتم يحسد أمرى خان .. من مساكن وتغيير حركتي حتى  
لا أتكلم حقيقة على حد قوله .

ومضى الوقت رهيباً .



وهست وأنا مقيد بلراهمى صديق القويين .

— إذا مات سوف أسلمك للبوليس .. أنت الذى قتله ..  
أنت مشول ..

وسمعت صديق يضحك وينظر فى ساعته هاتفاً :

— ٤٥ دقيقة .. انظر ..

ونظرت إلى البئر ورأيت البراهما يتحرك ببطء صاعداً البئر  
درجة درجة وفى يده الجرة ..

وحينما أخرج رأسه من تحت الماء أخذ نفساً طويلاً عميقاً وناولنى  
الجرة وهو يهمس :

— هذه المياه شافية للأمعاء والكله .. خذ منها جرعة وافية ..

وكنت أنظر إليه وأنحسه وأنا غير مصدق .

كيف . كيف ..

أخذت يديه أقبلهما ولكنه سحبهما بشدة واكتفى بخداه  
بعمرة الخجل ..

— خذ جرعة من هذه المياه ..

— ولكن ياسيدى كيف .. كيف .. كيف فعلت هذا ..

— وهل فعلت شيئاً غريباً ..



وكانت السحب السوداء قد بدأت تتجمع فوق الجبل ثم  
فتحت فجأة كأنها قرب ونزلت سيولا كاسحة .

ورأت البراهما يرسم الصليب على صدره ، ويتمتع بآية  
من الإنجيل . ثم يتمتع بآية من القرآن ، ثم يقرأ آية من المزمور  
الخامس ، ثم يقرأ من كتاب الدامايدا ( كتاب الطريق لبوذا ) .  
ثم يهمس وهو ينظر إلى السيول التي تجرف الأكواخ الصغيرة  
في طريقها . .

— هناك أطفال يموتون الآن . . علينا أن ننزل لنساعد من هم  
في حاجة إلينا . .

ونزلنا هابطين الجبل . . وبدأ السيل يخف تدريجياً حتى توقف  
تماماً حينما بلغنا أقدام الجبل . .

وسطعت الشمس برامة حامية . .

ونظرت في دهشة إلى الرجل العجيب الذي يحفظ جميع الكتب  
السجوية . . ويرتل آيات من جميع الأديان ، ويحيط بالرياضة والعلوم  
والفلسفة واللغات . .

أى رجل هو . . ؟ !

وعلى أى دين ؟ ! !

ومن أى ملة ؟ !

— لقد حطمت جميع القوانين . .

— أنا لم أحطم شيئاً . . لا أحد يستطيع أن يحطم قانوناً .  
إن ما فعلته كان وفقاً للقانون . .

— أى قانون .

— القانون الأعلى . . حينما تصعد العصارى في النخلة إلى أعلى  
قانون الجاذبية لعشرات الأقدام في الهواء . . هل يقول أحد  
النخلة حطمت قانون الجاذبية . . أم هم يقولون في علم النبات :  
صعدت وفقاً لقانون أعلى من قانون الجاذبية .

— إنهم يقولون إنها صعدت وفقاً لقانون الحياة . .

— وهو أعلى من قانون الجاذبية . . وقانون العقل أعلى من الاثنين  
وقانون الإرادة أعلى من الكل . . لقد قت بإثبات تفاضل القوانين  
بتجربة متواضعة أمامك . . هل قرأت عن تفاضل القوانين  
في الرياضة .

— لا . . لم أقرأ . .

— إنك لم تدرس بما فيه الكفاية . . وهذا كل ما في الأمر . .  
خذ جرعة طيبة من هذه المياه . .

وناولني الجرة . فأخذتها وأنا غير مصدق . . ولمستها وكأنني  
ألمس شبحاً . . وشربت حتى ارتويت . .

وعند أقدام الجبل صادفنا الدليل كاكوما مع بعض من أعضاء الوفود في جولة سياحية . . . وحينما رآني في صحبة البراهما وقف يبرطم ويشير نحونا في سخرية . . .

ورأيت البراهما يضحك ويهمس مشيراً ناحية الرجل . . .

— انظر إلى الظل الذي يلقيه الرجل على الأرض . . .

ونظرت ناحية كاكوما فرأيت يلقى على الأرض ظل حمار . . .  
بأذنين طويلتين مشرعتين ورأس مستطيلة وخشم غليظ . . .

ولم أملك نفسي من الضحك عالياً . . .

والفتت نحوى أمرى خان وضغط على ذراعى هامساً :

— بكفبك ما رأيت لرحلة اليوم . . . لقد اقترب وقت الغداء ولا أظن أنك ستأكل من طعام البراهما . . .

— ولم لا . . .

فضحك أمرى خان . . .

— إن البراهما لا يأكل شيئاً . . . إنه يتغذى بنفس الطريقة التي يتغذى بها تحت الماء .

— يا صابر . . .

— أظن أنك لم ترتفع بعد إلى مستوى هذا اللون من الغداء .

إلى ها وأعترف أنى مازلت حيواناً وأقل من الحيوان : الغداء

فإن تعجب معي . . .

وهكذا التينا ذاتنا من البراهما وانصرفا بعد أن ضم كل منا كفيه في ثيابه وإجلال واحترام وأخذني أمرى خان تحت ذراعاه . . . سيضعني . . . للتندورى . . .

— وما هو التندورى . . .

— سوف تعرف ما هو التندورى حينما نصل إلى « موى محل » مصر شعبى في الهند . . .

كنتى كنت ما زلت افكر في الرجل الذى أغلق عينيه تحت نام . . . الرجل الذى يخفظ جميع الكتب السماوية ويؤمن بالآديان ويصلى بجميع اللغات . . . ويمتدح على الأرض إذ : يعطير . . .

لا يكون كما هذا . . .

لا تكون كل هذه الرحلة إلى الهند أخفاة أحلام .

ولكننى سوف آكل التندورى . . .

وقى مطعم « موى محل » قدموا لنا « التندورى » وهى دجاجة مشوية ومصبوغة بلون احمر فاقع . . . ومعها طبق من الكارى . . .

وطبق آخر اسمه الثايبوكا ( طعام يشبه البطاطا ) مع أطباق عديدة  
الموز الجفيف والمango والمخلل والملح . . وأكواب من عصير  
المعزوج بالشطة . . وسلطات من كل لون .

وكانت أكلة حامية ملتهبة لاسعة لكثرة ما فيها من بها  
حريفة . .

ولكن ما يعقل من أسئلة محيرة كانت تلسعني أكثر.  
سألني صديق وهو يأكل الدجاجة بيديه .

.. هل أحببت الأكلة الهندية . .

.. لا أفهم لماذا تصعمون الشطة في كل طبق وفي كل  
من الطعام . .

.. لو لم نفعل هذا لنامت أعمارنا من شدة الكسل و  
إن الشطة عندنا قانون بيولوجي . . أعتقد أنه القانون الوحيد  
لم يستطع صديقنا البراهما أن يعار عليه . .

.. بيتي وبيت : أننا أحياناً لا أصدق ما يأتي به ذلك البرا  
من أفعال . . هذا غير معقول .

.. ما هو الغير معقول . .

.. كل ما شاهدته اليوم والأمس غير معقول . . إنه ساحر مشعوذ  
إني أحياناً أصدق كاكوما . . تصوره إنه يجعل كاكوما يلتقي على الأرض  
ظلاً يشبه ظل الحمار . .

.. لأن كاكوما بالفعل حمار . . هل تعتقد في تناسخ الأرواح . .  
إننا أعتقد أن كاكوما قد حلت فيه روح حمار . .

.. ولكن رأى كاكوما يربحنى . . الاعتقاد بأن البراهما ساحر  
مشعوذ دجال هو رأى مريح جداً . . أما الإيمان بالخوارق التي يأتي  
بها فإنه يؤدي إلى الخبال والجنون . . نعم سوف يصيبني هذا  
الرجل بالخبال من طول التفكير فيها بفعله . . أؤكد لك أن كاكوما  
على حق . .

.. أنت تريد أن تستريح وحسب . . لا تريد أن تواجه  
الحقيقة بأى تمن . .

.. إن الثمن لن يكون أقل من الجنون . هذا الرجل يثير  
مشكلة أكبر من عقل . . أكبر من قدرتي .

.. الظاهر أن الشطة كانت أكثر من اللازم . . وأنها تسربت  
إلى دمه . . وإلى عذقه . . أنت في حاجة إلى ملطف . .

وصفني أمرى خان للجرسون وكلمه بالهندية . . فغاب  
الجرسون لحظة وعاد يحمل صينية عليها عدة أطباق صغيرة بها  
بنسون وحبان ومشتكة وكون وسكر نبات . .

وأشار على أمرى خان بأن أمضغ من هذه الأصناف ما أستطيع  
قائلاً إنها مهدئة ملطفة ومهضمة . .

.. المهم ليس ما أستطيع ولكن ما أستطيع . .

ولم ينتظر أمرى خان أن اختار ما أستطيع وما أستطيع وإنما  
 حتمانه من كل صنف وعياً لي جيوى . . قائلا إني سوف أحت  
 إلى هذه المعارضة الشافية . . وأنى لا أعرف الهند ولا أعرف ما  
 يفعله الطعام الهندى فى الطون .

وغادرنا المطعم . .

ولاحظت أن الهنود يقفون على محطات الأنوبيسات فى طواف  
 منتظمة وكانت هذه الظاهرة فريدة فى نوعها وغير مفهومة بالنسبة  
 إلى كثرة مظاهر القوضى الأخرى فى الحياة اليومية فى الهند . .

وركبنا أول تاكسى . .

و نطق بنا مسرعاً إلى الفندق بمحترق الشوارع الغليظة والأز  
 التى يتكدس فيها الرحام فى مهارة غير عادية . .

وقال لى أمرى خان إن عدد سكان الهند أكثر من أربعين  
 مليون والسبب فى هذه الكثرة أن أغلب السكان يتامون مع غروب  
 الشمس ولا يجدون إلا لعبة واحدة يلعبونها وهى لعبة النسل . . وأن  
 الهندى الفقير لا يفهم ما معنى تحديد النسل فليس عنده شيء آخر  
 يفعله . . وهو يعتمد على السيول والمجاعات والأوبئة فى تأدية مهمته  
 تحديد النسل بحماس ونشاط أكثر منه . .

وسكت أمرى خان فجأة وعجزنى قائلا وهو يشير امامه إلى  
 بقرة فى الطريق . .

بصر ماذا سيفعل صائق تاكسى حين يقترب من البقرة . .

.. ووه سائق تاكسى كان شاباً عربياً يفعل فقط شيئاً  
 . . أوقفه وفتح باباً وأرسل قلبه فى إحلاله بوقاير تتعذر  
 . . بقرة وهو يردد بعبه لائق شاد

.. ص . . وه فى حشيرة وثلاث حتى مررت ببقرة مزودة فى دلال  
 . . ب . . من هربى . . ثم عاد إلى كرسى أمه عجلة قيادة  
 . . ب . .

.. وهى أمرى خان

.. وهى أمرى خان

— حسناً .. اعتبر نفسك واحداً من أهل الله .

— ومن أصحاب السوابق الذى لم يقبض عليهم بعد ؟ .. أليس

كذلك ..

— إن اكتشاف عشرة أطباء دجالين لا يعنى أن المهنة كلها

دجل .

— هل تريد أن تقول لى أنك تعتقد فى خرافة الوسطاء أيضاً ؟

— ولم لا .. إن هناك ظواهر فى حاجة إلى تفسير .. والوصاطة

هى تفسيرها الوحيد .. فلماذا لا يكون تفسيراً مقبولاً .. هل  
تستطيع أن تفسر لى اتصالنا الفكرى منذ لحظات .

— الصدقة .. مجرد الصدقة .

— هذا يعنى أنك تعتبر ما حدث دالاً على لاشئ .. مجرد

صدقة ..

— نعم .

— ولكن من الملاحظ بعبء الصدقة يتكرر كثيراً فى

حياتنا بدرجة ينفيها قانون الصدقة نفسه .. وأنت تعرف أن علم

حس اعترف بهذه الظاهرة وأدخلها فى عدد ظواهره العلمية تحت

اسم « التيليافة » ..

— إن علم النفس أصبح يعمى أشياء كثيرة هذه الأيام

كنت أفرع غرقتى فى العندق ذهاباً وجيئة ، وقد استغرقت  
فى تفكير شديد والساعة تدق نصف الليل حينما طرق الباب ودخل  
أمرى خان سائلاً فى قلبي :

— هل أرسلت فى طلبى ؟

وشعرت بالدهشة ، فقد كنت أفكر فيه طول الوقت .. وكنت  
على وشك أن أرسل فى طلبه .

وصارحته بالحقيقة ، فابتسم :

— هذا معذرة أن هناك اتصال أفكار بيننا .. لقد أصبحت  
وسيطاً روحياً بعد خمسة أيام من قدومك إلى الهند .. هذا  
تقدم تحسد عليه .

وضحكت ..

— وسيطاً روحياً .. هل تعتقد فى هذا الكلام الفارغ .. إن  
هؤلاء الوسطاء يسمونهم فى بلادنا المشايخ وأهل الله .. ونصفهم  
دجالون وأصحاب سوابق .

— هل تسمح لي بأن أذكر غليونى .

وأخرج غليوناً فاخراً أشعله .

— إن ميزة الغليون أن دخانه يطرد البعوض .. تستطيع أن تفتح النافذة الآن ، فلا خوف من دخول البعوض في مثل هذا الظلام .. ومثل هذه المذخنة .. مشتعلة .

وفتح النافذة ، وتدفق نور القمر .

كان القمر بدرأ ..

وانكأ أمرى خان على النافذة ومضى يدخن في شراة .. ثم قال بعد فترة صمت :

— منذ خمس سنوات كنت في إنجلترا مع البراهما واجيسوارا .. واقترح على البراهما أن نحضر جلسة روحية للوسيلة مسز ماكنزى في جمعية مارلبورن بلندن ، فوافقت من باب الفضول ، فأنا مثلك لا أؤمن بشيء خارج دائرة حواسي المباشرة ..

وبدأت الجلسة بإلقاء الأنوار وتلاوة بعض الأناشيد الدينية وعزف الأرغن ، ثم سمعت صوت مسز ماكنزى واضحاً .. إلى السيد أبرى خان الذى يجلس في الصف الأول .. هناك رسالة من والدك الميت .. ووقفت منهشاً بينا كانت السيدة تكتب ما تحبه عليها الروح بالكتابة التلقائية .

عندما أضيئت الأنوار .. وطلعت الرسالة لاحظت أنها مكتوبة من السيدة السكريدية .. وأن إيمضاء والدى عليها واضح ؟ لاشك .. لأن مصوون الرسالة باختصار أنه سعيد في العالم الذى يعيش فيه .. أنه يرضى من أجلنا ..

عندما أطلقت الأنوار من جديد .. قالت الوسيلة .. إن .. سيد .. ريت حاضرة وهى تسألك إن كنت تريد .. صوت هـ : أريد أن تصف لي بالتفصيل العلم الذى تعيش فيه .. وبعد فترة صمت .. بدأت روح والدى تلتقي وصفاً تفصيلياً ..

.. بدأت في مكى .

.. من وصول .. إلى ..

.. صوت هـ : صريف .. في لشوق جسد إلى معرفة ..

.. صريف .. وصف روح .. قرب بوصف لعمى

.. هـ : يزيد فضولى ..

.. صوت هـ : روح .. العلم الآخر ليس له موقع جغرافى وإنما

هـ : فيه وحولك .. فهو ليس مكاناً .. وإنما هو حالة تختلف فيه ..



نحيد إلى المرتبة الأرفع التي تناسبها .. بينما لا تستطيع روح منحلة  
أن تتعلم هذه الفروقات ، فتظل في مهاتها السفلية ..

قانون التوازن يعمل في إحقاق العدالة بدون نظم سياسية  
وبدون أحكام .. فكل واحد يأخذ مكانه الصحيح ولا يستطيع  
أن يتجاوز ..

ولا توجد حروب ، لأن صراع الخير والشر يتخذ مظهراً  
عقلاً ضمائرياً ..

ولا يوجد إكراه ولا إجبار ، وإنما حرية مطلقة .

والحرية هناك في التوافق مع القانون السامى ..

ولا كهولة ولا شيخوخة في الآخرة ، فالأرواح تعود إلى شبابها  
وتكوينها الناصر .

والأطفال ينمون بسرعة إلى طور الشباب ..

وسكت أمرى خاد لحظة ، ومضى يدخن . بينما سألت أنا في  
شوة

— وماذا عن الجنة والجحيم ..

... الجحيم في الآخرة ليس دائماً الحريق ولا النار . وإنما هو  
مذاب له صور شتى .

والروح في الآخرة تحتفظ بذاكرتها كاملة ، وهي تستطيع  
تستعيد كل تفاصيل حياتها الأرضية . بما فيها من خطايا وذنوب  
وتعاني الندم والألم حتى تتطهر ..

وبعض الأرواح تستطيع أن تتخاطب من خلال الأحلام بأقارب  
من الأرضيين ..

وبعض الأرواح الشريرة تلبس الأجسام الأرضية وتعيبها بالثواب  
والجنون والأمراض المستعصية ..

وبعض الأرواح الخيرة تلهم أحبائها الخير والحب والتوفيق  
والبركة ..

وفي العالم الآخر حيوانات مفترسة . ولكنها لا تفترس ، لأنها  
فقدت الرغبة في الطعام ، فترى الأسد نائمًا في حضن الحمل  
وهذه فراشات وحشرات وحيوانات مستأنسة من كل نوع وزهرهم  
جميلة من كل لون ..

وليس في الآخرة دول ولا سياسات ولا أحكام .. لأن الأرواح  
يحكمها قانون التوافق الطبيعي . فكل روح في مرتبتها المفضلة مع  
ما بلغته من نضج وحكمة وخير ..

إن الحكمة والحب تهبها اللذبة العالية التي تساعد على



لحظة الانفصال بالموت . تكون لحظة آتية طويلة ، بالأرواح الشريرة .. وبعد الموت تظل الروح الشريرة تعذب عاداتها الأرضية . فيخلل لها أنها ما زالت لها جسد . وبالتالي تضع بالآلام الجسدية التي كانت تعانيها على الأرض .. وتشعر بصعوبة وبالنعب والأمراض والأوجاع البدنية .. وقد تستمر هذه الفترة سنوات وقرون حتى تدرك خلاصها ..

وتظل ذنوب الروح الشريرة شاخصة أمامها طول الوقت .. فلنائل يظل يرى صور ضحاياه ويسمع أنينهم .

ولا يكون عذاب الروح بصور حكمة بالإدانة . ولا عذاب تقني . نتيجة لقصها .. مثل النخلة . نتيجة لإفراطها في العمل .. نتيجة الكسل ..

وبعض جزء من قلوب المتوفين السيئ . لا تكرأف ولا يحسن .. لكن بحسب عمله .

وبعض الأرواح الشريرة تعيش في عزلة وظلمة مع الأرواح الشريرة أمثالها .. حياة كلها أحقاد وأضغان ..

ويكون عذاب الأرواح المتنافقة باقتضاحها ، وعذاب الأرواح متكبرة هوس . أمدام كانت تحقرهم . وعذاب الأرواح الإنيحية في وحدة . حيث لا تجد أحداً يعنى بأمرها أو يفكر فيها ..

وبعض الأرواح تكون مكشوفة لأصحابها في الآخرة . وهذا هو حزين من أرواح عذاب الأرواح الشريرة . فهي تعيش في مكشوفة في سجون المصطنعة وخطاياها ..

وبعض الأرواح الشريرة تعود بغير انقطاع إلى حيث دفنت . حيث تخلق حول القبر وتشعر بأجسامها تتحلل والدود ينخر . وقد تظل تعاني هذا الارتباط الوهمي سنوات .

وبعض الأرواح التي انتحرت تعاني من لحظة انتحارها . وقد وب روح انتحرت ببلقاء نفسه من برج .. فلما ظلت تعيش في .. من عذابها تهوى من حائل . ونها على وشك الارتطام بالصخر . ومن هذا الشعور لفظيع يلزمهم أكثر من مائة سنة .

وبعض الأرواح الشريرة يقضى عليها بالعودة إلى لعبة الميلاد . وشخص من حديد في اللحم والدم . وتعود إلى الحياة الأرضية لشكرهم عن ..

وبعض الأرواح غطتة تشعر بالنور الباهر . كأسيح من حديد حرق في النار بصورها .

وبعض عذاب الأرواح دائماً عذاب موقوف محبوس له تحرق .. وهو في العسادة لحظة يقظة الروح وندهم . واكتشافها

لجهاتها وترديها .. في تلك اللحظة ، تحف ألقاها ، وترتفع ذبذبتها .  
فتحلق إلى عالم أجمل وأكمل .. ولذا كان عذاب الآخرة لو لم  
التطور والارتقاء والتعلم ، لا ضرباً من التشكيل والانتقام .. به  
عذاب لفترة وليس للأبد ..

أما الجنة - فهي حياة الروح ، في محبة وعمل وارتقاء دائم ،  
آفاق لا نهائية ، حيث تبلغ الروح الأعظم وتندمج فيه ..

وسكت أمرى خان ، ومضى يذخن ويتطلع إلى القمر  
قلت في استغراب ..

- هذه الصورة عن العالم الآخر تشبه فكرة أفلاطون  
عالم المثل .. إنها أشبه بانفياال الأرضي منها بانفياال الرو-  
أعتقد أنه قد قلته الوسيطة مسرماً كثرى هي تصوراتها الشخصية  
وقراءاتها الشخصية في الفلسفة والتصوف .. وأن ما رويته  
العالم الآخر ، هو تخميناتها ، ولا دخل للأرواح في الأمر ..

- من الجائز .. إنما أحببت أن أطلعك على ما سمعت .. ولا  
في فكرت مثلك ساعتاً .. برغم الرسالة المكتوبة بالنسكية  
وعديها توقيع والدى ..

- إن الوسطاء المحترفين في المادة يتقنون اللغات القديمة ..  
تجارتهم الرابعة .. وهم يعرفون كيف يروجونها ..

- لقد كانت هذه نظريتي .. ولكنني عدت فقلت لنفسي ..  
ولماذا لا يكون أفلاطون في نظريته عن المثل .. وسيطاً ملهماً أكثر  
منه فيلسوف .. ألا يمكن أن نعتبر الشعر والفلسفة والموسيقى إلهامات  
تصلنا في لحظات الصفاء .. شأنها شأن أية وساطة .. ويكون أفلاطون  
في جمهوريته في هذه الحالة يروي حقيقة أكثر مما يروي فرضاً  
فلسفياً ..

- هذا غاية في الشطع .. لم يبق إلا أن تصنع لي أجنحة وأنا  
واقف بجوارك ..

- صدقتي أن لنا أجنحة خفية ، هي عقولنا وأرواحنا ..

سوف تتعب نفسك كثيراً يا صديقي .. أما أنا فقد أرحمت  
نفسى من كل هذه الفروض .. أنا بشر من لحم ودم وحواس ..  
لا شيء حقيق سوى الواقع اليوى الذى أعيشه ..

- وماذا تقول فيما يفعله البراهما .. أليس واقعاً لمسته  
بش ..

- لقد اعتبرت ما رأيت ، شعوزة واحتيالا ، وخداع حواس ،  
وأرحت نفسي ..

- حينما تبدأ بتكذيب حواسك .. فقد بدأت قصة تعبك ،  
صدقتي ..

لا راحة في هذا الطريق الذى سلكته أبداً ..

- إلى أفضل أن أفكر على طريقة كا كوم ..

- لا تنس أن جميع العلوم اليقينية التي تعتمّز بها قد بدأت على شكل خرافات وأساطير . ولو تتبعنا منشأ الطب وعلم النفس والطبيعة والكيمياء والذرة ، لعجبت في أنها كلها بدأت بتخمينات وشطحات وأحاجي ، مثل هذه الأحاجي التي يقدمها علم الأرواح تماماً ..

- حسناً .. سوف أنتظر حتى يصبح علم الأرواح علماً يقيناً ، بدلاً من أن أتعب نفسي في الأحاجي .

- ولماذا لا تعمل شيئاً بدلاً من الانتظار .. فقد نستطيع - إذا فكرنا سوياً - أن نصل إلى شيء .. وأن نخترع طريق الضلام الذي نسير فيه ..

هل نسيت أن الخيال المغنطيسي للأرض ظل مجهولاً حتى اكتشف بواسطة الحجر المغنطيسي صدفة .. وبالمثل كان الوسطاء هم البوصلة التي كشفت الخيال الروحي للإنسان .. هكذا .. بالصدفة أيضاً .. صدفة الإلهام ..

- إلى رجل علم .. أعطى مقدمات معقولة أولاً ، وأنا أسير معك إلى آخر الدنيا ..

إما أن أبدأ رحلتى بلا معقول .. فإن النهاية سوف تكون معروفة سلفاً .. لأنها مستشفى الخياليين ..





لطاغور .. إنها ليست غرفتي بالفعل .. فلم تكن بغرفتي صورة  
لطاغور .. لقد كانت هناك صورة لطاغور ، نفس الصورة بالإطار  
المذهب ، ولكن في غرفة أمري خان .. وكان هناك تمثال نصفي  
لغاندي .. ها هو بالفعل ..

ونحنمعت في دعر .. لقد انتقلت إلى غرفة أمري خان ..  
كيف .. ومتى ؟

وصرخت من الذعر ..

\* وخرجت صرختي مبهوكة خائفة مرعبة ..

فتحت عيني فوجدت أمري خان واقفاً عند رأسي ، وإلى يده  
منديل به عطور هندية حادة ، يضعه عند أنفي ميتسماً .. همست  
في ضعف ..

.. أين أنا ..

.. أنت في غرفتك في فندق أشوكا ، وفي أمان ، بين أصدقائك  
وأحبائك ..

وتضعفت حواسي ، ورأيت نفسي أبكي فجأة .. أبكي في  
نعاسة كطفل يتم ضائع حائر بلا أهل ..  
.. أنت تبكي .. هذا غير معقول ..

.. لقد كنت أفقد عقل في هذه اللحظات القليلة التي مضت ..  
كاد يودي بي كابوس فظيع .. خيل إلى أني انتقلت فجأة ، وأنني  
في مكان غير المكان .. كنت أرى هنا تمثالاً ، نفس التمثال الذي  
على مكتبك .. وعلى الحائط صورة كبيرة لطاغور ، في إطار مذهب ،  
نفس الصورة والإطار التي في غرفتك .. هكذا في لحظة .. وكأني

هواء . وكأني تخلفت الجدران وانتقلت إليك دون أن أرى  
مكانى ... كان شيئاً خفياً ..

نحن في عصر نتقل فيه كل الأشياء بسهولة .. صور  
نتقل بالليفزيون .. وأصواتنا بالراديو .. ورسائلنا بالبرق  
لم يعد عجباً أن تنتقل أرواحنا ..

— لم أعد أعجب لأى شيء أراه في بلادكم .. لو قلت لى  
روحي خرجت منذ لحظات ، لصدقتك ، فقد خيل إلى ساعتى أن  
روحي خرجت منى ..

— لقد كنت مغنى عليك تماماً ..

— لعلى مت نصف موت ..

ورحت أتحسس نفسى غير مصدق ..

— تصور لقد خيل لى أنى هواء .. وأرقى من الهواء ..

— نحن هواء .. وأرق من الهواء .. ألا تنفذ فينا الإشعاعات  
كأنها تنفذ في مادة خلاء .. إن بصرنا كليل جداً .. إننا لانرى  
أنفسنا على حقيقتها ..

— إننا مخلوقات جديرة بالإشفاق ، مخلوقات عباءة  
صعبة ..

لقد كنت أشعر ساعتها أنى أصبحت ذلك المخلوق الجدير  
بذلك فعلاً ، كنت أشعر أنى فى حاجة إلى يد تأخذنى إلى  
الجنة .. وأنى أتقدم زحفاً منذ آلاف السنين ..  
فى بيت

لقد كنت .. كنت .. وأريد أن أعود إلى سدى .. لأن  
فى بيتى بيتاً جميلاً ..

لقد صرغته .. كنت لم أكند تقضى بسا أياماً .. كنت لم  
أر يوماً من الهدوء ..

لقد رأيت كل الهند .. لقد رأيت منها ما يكفى وزيدة ..  
.. فمرتني هذه الأيام القليلة .. بدلتنى .. جعلت منى إنساناً غير  
.. إن .. لقد اكتشفت أنى لم أكن أعيش .. لم أكن أفهم شيئاً ..  
ووجدت له يدى ..

كنت عطشاناً إلى اليد الهادية التى تأخذ بيدي ..

فأتى له أنى أريد أن ألتقى بالبراهما .. أريد أن أحج إليه  
والصبح والبركة ، وأنعلم منه شيئاً جديراً بالعلم ، قبل أن  
تنتهى ..

وأمسكت بيده وتطلعت إليه فى قلق ..

.. فنظرت أننا نحد البراهما فى كهفه فى هذه الساعة المبكرة ..

قال بإشفاق ، وهو ينظر إلى عيني اللهفائتين :

— نعم إنها ساعة صلواته في العادة ..

— خذني إليه .. إني في أشد الحاجة إلى كلماته ..

.. .

وفي كهف البرهما ، جلست عند قدمي الرجل الصالح ..

وكانت عياني تدمعان انفعالا ..

قلت له : إني أريد أن أعلم .. أريد أن أهتم .. أريد منه أن يأخذ بيدي ويدلني على طريق النجاة ، ويقرأ علي من آياته كذبه ..

قل الرجل الصالح في نبرات جليلة ..

— اعلم أن روح الله تملأ الوجود .. وأن كل ماني العدم من فن وفكر وعلم وجمال ، هي إذاعات من هذه الروح الكلية الخالقة ... وما روحك إلا قبس من هذه الروح الكبرى ، تنلق منها . أنت أحد آحاد الأحد الأكبر .

اعلم أن هذه الروح الكبرى ليست بشراً ، ولكنها الذات العليا . والقانون الأسمى ، لكل الوجود .. اعلم أن الحياة لاتصلح بغير صلاة ..

وإن صلاتك لا تكون نافعة ، إلا حينما تنسى أنك تصل ، وتوجه بكليتك إلى روح الوجود في صرخة استنجد واستغاثة ودهشة وإعجاب ، وحب وإبتال مأخوذ .. فالصلاة ليست كلمة تنهه بها ، وإنما هي شعور بالقداسة والافتتان والإجلال والحب والثناء ، في المقام الإلهي الأرفع ، وإدراك بأننا قطرة من النبع الصافي اللانهائي ، تصدر عنه ونعود إليه ..

عبد إلهك : إلهاً موضوعياً ، تتمثل فيه وتصدر عنه جميع الأمور .. صيغة الحكمة . التي يكتشفها العلم ببطء ومشقة . وحاول أن تتش في توافق مع نواميس الحكمة ، فهذه هي حريتك .

وتذكر أن الفضلاء من جميع الأديان ، هم في الحقيقة على دين واحد ..

تذكر أنك تباعد عن روح الله ، كلما تقربت إليه بالعقوس بنية ، والكهانات والمراسيم ، والكلمات الخالية من الشعور .. الذين الحقيقي هو أن تعبر عن حبك للروح الأعظم ، بحبك لأصمه ..

وحينما تنسى ذاتك في خدمة الآخرين ، سوف تنمو ذاتك وتعاظم في التركيب والقوة ..

بالعمل والمحبة وخدمة الآخرين ، تعبد إلهك ، وتشعر بجماله ..

كما أنك لا تستطيع أن تكون سعيداً ، وأنت في أسرة هشة ،  
فكذلك لا يمكن أن تكون سعيداً ، وأنت في مجتمع شقي وعالم شقي ..

أنت مسئول لما يحدث لمواطن لك في آخر الدنيا . . وهذا هو  
الدين . . كل ما نقوله لك أنانيتك شره لأنها تجعلك في عزلة عن  
الآخرين ، وتحرم روحك من غذائها الطبيعي ، بانصالها بالحياة في  
جميع مجالاتها ..  
أنانيتك تفكرك وتجذب روحك ..

تذكر أن السعادة ليست خطأ ، ولا مجنأ ، وإنما هي قوة ..

أبواب السعادة لا تفتح إلا من الداخل . . من داخل نفسك ..  
للسعادة بحيث من الطريقة التي تنظر بها إلى الدنيا . ومن الطريقة التي  
تسلك بها سبيلك .

موقفك المشيع بالحب والتفاؤل يحول عذابك إلى كفاح للذي .  
ويحول محاربتك للشر ، إلى بطولة للبر ..

إحساسك بالجمال يجعل الطبيعة تنبض من حولك بالموسيقى  
والنغم ..

تفتحك للمعرفة يجعل رحلتك الشاقة ، نزهة مشوقة مذهلة ..  
تواضعك يجعل الفشل لا ينال منك ..

تفاؤلك في عملك . يجنبك ملل الفراغ وقنوطه وخميره . ويفتح

.. زرع العزيمة . ويزرع لك مباحج الاكتشاف ونشوة النصر ..  
.. يزرع لك حب الحق . لا ينفص العظماء ، لأن الدين الحق هو  
.. حب الحق ..

.. يزرع لك حب الحق . لا ينفص العظماء ، لأن الدين الحق هو  
.. حب الحق ..

.. يزرع لك حب الحق . لا ينفص العظماء ، لأن الدين الحق هو  
.. حب الحق ..

.. يزرع لك حب الحق . لا ينفص العظماء ، لأن الدين الحق هو  
.. حب الحق ..

.. يزرع لك حب الحق . لا ينفص العظماء ، لأن الدين الحق هو  
.. حب الحق ..

.. يزرع لك حب الحق . لا ينفص العظماء ، لأن الدين الحق هو  
.. حب الحق ..

.. يزرع لك حب الحق . لا ينفص العظماء ، لأن الدين الحق هو  
.. حب الحق ..

.. يزرع لك حب الحق . لا ينفص العظماء ، لأن الدين الحق هو  
.. حب الحق ..



ولكنه لا يفسر ارتفاعها إلى فصائل ، أبجل وأرشق والطف ..  
فأوجه المنفعة هنا ..

وإذا اعتبرنا أن الفصائل الأبجل ، جاءت نتيجة الانتقاء  
جنسى . فالسؤال يظل مطروحاً .. ما وجه المنفعة في اختيار  
الذكر للأبلى الأبجل .. وأين العامل المادى هنا ..

إن التفسير الأكثر قبولاً ، أن هذه المادة الحيوانية ، كان يرشدها  
نقل . يوجهها ويهدها ويعطيها الشكل والجسم ، مهما بدا في الظاهر  
مكرماً بها ، ولذا كانت عملية التطور بطيئة غاية البطء .

إن التفكير المادى ناقص عاجز ، لا يفسر لنا حياتنا ، وهو  
يعطينا إلا عمراً محدوداً شاحياً ، نهايته الموت بلا بعث ، بلا عزاء .  
..

لموت . ثم الفلام . ثم لاشئ ..

نظرة قائمة تسلب الفرد قسبته ..

هم يعيون على الشرق أنه سادر في أديانه وروحانياته ..

ولكن الأديان ردت للفرد كرامته وقداسته ، واعتبرته حقيقة  
مضائق باقية ، حينما أعطته روحاً تعلق على الموت وتتحدى القناء ..  
وهي بهذا أعطته العزاء والأمل ، وجعلت من عذابه كفارة ، ومن  
آلامه فداء ..

مسار ، وبين ثوب معلق عليه .. إذا اهتز المسار ، اهتز الثوب ،  
وإذا وقع المسار على الأرض ، وقع الثوب .. ومع ذلك فالثوب  
شيء والمسار شيء آخر .. وكذلك عقلك ، يتجاوز حياتك الدماغية ،  
ويبقى بعد فناء الدماغ .. لأنه شيء ، والدماغ شيء آخر ..

قلت في خشوع :

— والحياة .. ما الحياة .. ومن أين .. وإلى أين تنتهى بنا هذه  
الدوامة ..

قال إبراهيم مبيتسا :

— كان أبجل الغال أيام الإسكندر ، يتأملون النجوم على حسيان  
أنها نقوش على السقف ..

وما زلنا إلى الآن نتأمل الحياة ، على أنها ظواهر وهوس ،  
حدودها ما نلمسه منها بالحواس ، لنحاول أن ننفذ إلى باطنها  
وجوهرها ..

أن اعتقادنا بأن الحياة انفجار كوني ، نشأ بالصدفة ، مثل  
اعتقادنا بأن انفجار في مطبعة ، يمكن أن يؤدي بالصدفة إلى أن  
تفرض الحروف على شكل قصيدة لطاغور ، واعتقادنا بأن تطور  
الحياة ارتقاءها كان بإرشاد الظروف المادية وحدها ، لا يفسر  
تطور الحياة أبداً .. أنه قد يفسر ارتقاءها إلى فصائل أموزى وأقذر ،

ألا تشعر بعقريّة الكون ونظامه وجماله وعدائه من خلال هذه النظرة الدينية ..

ألا تشعر بالراحة ، لأن هناك ناموساً عادلاً يشملك ويرفعك ، حراً مسئولاً باقياً خالداً على الزمان ..

أليس هذا دليل من داخلك على صدق الله ؟

— أهى الروحية مرة أخرى .

ابسم البراهما فى سماحة قائلنا :

سمها ما تشاء .. نتمكن « مادية » ، « مادية جديدة » أرق وألطف وأرحب وأذكى من المادية التى يفكرون بها فى الغرب .. نحن لا نريد أن نتعارك على أسماء ..

إن روحنا ما هى إلا مادة .. فى حالة جديدة لا نعرفها ..

— لقد عقدت بذلك « هدنة » . سوف نذكر لك على التاريخ ..

لقد صالحنى عن نفسى .

ولمّت طرف رداؤه ..

— أنت أبجل ما فى الهند ..

— ما أنا إلا تراب الهند .

— سوف يسعدنى أن أعود إلى بلدى بنقحة من هذا التراب

المقدس ..

وكان هذا آخر يوم لى فى الهند . .

وحينما كنت أضبع قدمى فى الطائفة بعد ذلك بساعات ، عائداً إلى بلدى كان أمرى خان فى وداعى ، وكان يقدم لى متديلاً ملفوفاً . .

— إنها صرة من الملح هدية من البراهما . .

وأخذت المتديبل بيد ضنيئة وأنا أغمس . .

— أشكرك على هذه البركة . . سوف يكون هذا الملح . .

ملح حياتى ونورها . .

وصعدت سلم الطائفة وأنا أضمه إلى صدرى .

وفي القاع كنت أرى عبد الرسول يصغر في فرح وهو يدق  
بمأساة على الباب السرى الذى اكتشفه في قاع البئر ، ويرزح السقاعة  
الحجرية ، فاتحاً الطريق إلى غرفة الدفن . .

وكنت أنزل الدرجات في حذر ، ومعى معاون الآثار يتحدث  
في انفعال عن التحف التى عثر عليها . . أساور وعقود وخواتم من  
الذهب والفضة . مكاحل وأدوات زينة ، من بينها مكشط للأطفال  
لإزالة الزوائد ، من النحاس ، مقبضه مرصع باللازورد . . أواني من  
الديوريت والمرمر . . لوحات من العاج ، عليها مناظر للحياة الملكية ،  
محفورة حفراً بارزاً ، تماثيل من الأبنوس . . أقمشة ملونة من  
الكتان . . حبوب من القمح ما زالت على حالتها ، وجدت محفوظة  
في قوارير . مراوح وعصى وكرامى من الخشب والجلد . . آلات  
نفخ موسيقية . .

وتقدمنى المعاون داخلاً من الباب السرى إلى غرفة الدفن . .

وكان أول ما لفت نظرى أن التحف مكمومة في غير نظام حول  
لنابوت .

وقال المعاون إنها عثر عليها بهذه الصورة .

وكان التابوت المرمر فارغاً ومغطى ، ولا أثر فيه لأى مومياة  
، لى مخلقات تدل على مومياة .

وكانت تنتظرنى أخبار مثيرة لحظة وصولى إلى القاهرة . .  
وجدت على مكتبى بمصلحة الآثار عدداً من أوامر التكليف  
بالانتقال فوراً إلى مناطق الحفائر في سفارة والأهرام وتل العمارنة  
لمعاينة الكشوف الأثرية التى تمت هناك ، ولقراءة البرديات  
المبروغليفية التى عثر عليها ، وكان معنى هذا أن أحزم حقيبتي  
وأسافر في الحال . . فلم يكن هناك من يحمل عملي في هذه المهمة .  
كخبير متخصص في اللغة القديمة . .

وفي الخرائب والأنقاض وبين الحطام وبين أكوام الرديم  
حول المصاطب الفرعونية القديمة ، شعرت أنى أعود إلى عمالي . .  
ذلك العالم البائد الذى عاشته عشرين عاماً من عملي مفتشاً  
بالآثار .  
١

وكان العمال يشيرون إلى البئر الأثرية التى اكتشفت . .

بئر محفورة في الصخر ، تنزل عمودية مسافة أربعين متراً .

وكان العمال لا يزالون يكسحون الرمال والحصى من داخلها ،  
ويكشفون عن درجات السلم التى تصل إلى قاعها . .

وكان الأمر عجيباً .

ومعنى هذا أن التابوت لشخص عظيم القدر .

معنى هذا أن المومياء سرقت . .

وإذا كان هذا المتاع هو ما تبقى من المقبرة بعد سرقتها . فلا بد أنه كان متاعاً فخماً هائلاً . . وهذا يؤكد مرة أخرى أهمية الميت .

ولكن إذا كانت المومياء سرقت ، فكيف غفل اللصوص عن هذا المتاع الثمين المكموم بجوارها .

ولماذا كرمت هذه التحف النادرة على هذه الصورة .

ولماذا لم تسرقها اليد التي كومتها . .

ولاحظت أن غرفة الدفن مبطنة بكتل من خشب الأرز . . وهو خشب كان يجلبه الفراعنة ، بإرسال بعثات إلى جبل لبنان . . ومن بين التماثيل التي عثرت عليها في الكومة حول التابوت ، كانت هناك تماثيل صغيرة : لطحان ، وعجانة ، وعجاز . وكاتب ، وجواري ورائصات . وحاملات جرار . ووصيفات .

وكيف يسرق السارق جثة لا تنفعه بشيء ، ويترك ذهباً بهذه القيمة . . كان هناك تفسير واحد . . أن المومياء كانت مدفونة في مقبرة أخرى اقتحمها اللصوص وأتلفوا الجثة (عل عادة اللصوص أيام الفراعنة) وسرقوا ما أمكنهم سرقة من متاع المقبرة . . ثم فطن الكهنة المشرفون إلى أمر السرقة وما حاق بالجثة من تلف ، فنقلوا التابوت الفارغ إلى مقبره الجديد وغطوه ، وأغفوا أمر السرقة عن فرعون . وكوموا ما تبقى من متاع حول التابوت ، وتركوا لكل شيء في فوضى . لأنهم كانوا في عجلة من أمرهم ، وفي رعب من أن يكتشف فرعون ما حدث فيعاقبهم عقاباً شديداً على نقصيرهم في حراسة المقابر (ولم يكن لكهنة المقابر عمل في تلك الأيام سوى حراستها من اللصوص) .

كنت أمام صاحب قصر ، ربما وزير ، أو أمير ، أو ملك . فهؤلاء هم الذين كانوا يدفنون بهذه الأبهة ، ومعهم تماثيل لحاشيتهم وخدمهم وموظفو ضياعهم ، حتى إذا بعثوا بعد الموت . كما كانت تقول لهم تماثيلهم القديمة ، وجدوا أنفسهم يستأنفون حياتهم الأولى بأكمل أبنتها ، بين خدمهم وحشمهم . .

وطبقاً للأساطير الفرعونية يخرج من الجسم بعد الموت روح بنية هي « با » وشبح مادي يماثل الميت في كل شيء هو « كا » .

وهذا الشبح المادي يعود بعد الموت ليبحث عن صاحبه ، فإذا وجد جسده حافظاً لمعالمها وشكلها ، تذكرها وحل فيها فبعثها حية .

ولهذا حرص الفراعنة على تحنيط جثثهم لحفظ معالمها حتى تستدل عليها « الكا » ..

و « الكا » تستطيع بالسحر والتعاويذ ، أن تحل في تمثال الميت أو رسمه أو صورته ، إذا لم تجد جثته .. لأن الصورة تذكرها بشبهها ..

ولأنها مادية فهي تحتاج إلى غذاء ، ولهذا يضع الفراعنة أواني الطعام حول موتاهم لتغذى « الكا » .. ويقدم الكهنة اخترايين الطازجة كل يوم . ويقرءون الصلوات لتستطيع « الكا » أن تستمد منها غذاءها .

وإذا لم تجد « الكا » غذاء . فزنها تستطيع أن تغذى بالبحر : من رسوم الطعام على الجدران ..

ولهذا جعلت مقابر الفراعنة بين فنون التحنيط والنحت والرسم لأنهما الوسائل التي تتعرف بها « الكا » على شكلها وصورتها ، وتعود إلى حياتها الأولى ..

وهي تهرعون له « البيا » التورانية ، إلا من تبع منهم عبادة الشمس « رع » . فحرص على الانتقال بعد الموت إلى السماء . وهؤلاء هو الأهرامات العالية والمراكب الشمسية لمصاحبة رع في رحلته الأثرية عبر السماء .. هؤلاء كان الاندماج في النور الإلهي عن طريق « البيا » هدفهم ..

كست أسترح في ذهني هذه لأساطير الفرعونية . وأعتقد في

عسى نوقت كبسات صديق الهدى ، أمرى خان . عن الروح حبة اللطيفة ، التي تنتقل بعد الموت إلى عالم من اللذذيات ، أرق من عشت . ولكن يشبه في كل شيء ، فيه فيلات وقصور ومستشفيات و... رس .. وفيه فاكهة وزهور وحيوانات .. وفيه موسيقى وفن وأدب . وفيه عمل وحب وخير وشر .

ما الفرق بين هذا العالم ، عالم الآخرة ، الذي تصوره المنود ، و« الكا » الروح المادية .. التي اعتقد فيها الفرعونى ..

وهي مثل روح صاحبنا ، تستطيع عند اللزوم أن تغذى على الصور والرسوم ..

كان كلام أمرى خان يبدو لي مشابهاً للأساطير الفرعونية ، كما هو مشابه لفكرة المثل الأفلاطونية .

ولو أنني صدقته ، لوجب على أن أصديق الفراعنة ، ولوجب على أن أغرق في عالم الأساطير والخرافات إلى أذني ..

وكنت ما زلت أذكر العالم المسحور الذي عشت فيه مع البراهما ، فتعاودنى الرجفة ، وتتخلل رائحة التابوت ، والمكاحل والعطور الباردة ، حواسي .. فتضاعف من تلك الرجفة .

وترتفع كلمات معاون الآثار خفيفة بربرية .

دست بروء . مصفاً بنسبه لى : مهر عدة ليال فى فض الطلام  
والرموز .

ولفتها فى حرص وأودعتها حقيتي ..

وكان المعاون يشير إلى حلقات نحاسية فى جذران الغرفة ،  
وإلى جبل من الكتان يتدل من إحدى هذه الحقات .. ويسأل ..  
ماذا يمكن أن تكون ..

وكنت أكثر منه حيرة . فلم يسبق لى أن رأيت مثل هذه  
الحلقات فى مقبرة .. وأشرت إلى حقيتي قائلاً :

- ربما وجدت الجواب هنا ..

قصص فى البرديات ..

وكانت الغرفة الثانية تؤدي إلى سرداب وضعت به أسلحة من  
كل نوع .. تروس ورماح وخناجر وعصى .. ونهاية السرداب  
صماء مغلقة لا تؤدي إلى شيء ..

وكنت أسأل نفسى طول الوقت ..

من يكون الرجل العظيم صاحب المقبرة .

وهل هو : رجل ، أم امرأة ..

إن الأمشاط والمكايل ، وسكين قص الأظافر ، وأواني  
منظور - تشير إلى امرأة .

— ٧٣ —

- تصور هذه الحبات من القمح .. مهرها أربعة آلاف عام .  
وهي ما زالت على حالها .. ربما ضمرت قليلاً .. لكنها مازالت  
محتفظة بشكلها ، هل تظن أن هذه الحبات مازالت حية ..

هل تظن أنها يمكن أن تنمو إذا زرعت .

هل يمكن أن يكون كلامه صحيحاً ؟!

هل يمكن أن تنمو هذه الحبوب بعد أربعة آلاف سنة من  
الموت فى جب تحت الأرض .. وأسكت بالحبوب أنفحصها بعين  
المجردة .. ثم بعدسة .

كانت تبدو ضامرة عجفاء ، لكن محتفظة بشكلها ..

ووضعف بعضاً منها فى جيبى .. على سبيل البركة ..

هذه حبوب أكل منها الفراعنة رغيفاً منذ أربعة آلاف سنة.

وغاب المعاون فى الحجر الثانية الملاصقة لحجرة الدفن ، ثم  
عاد يحمل لفافة من البردى ، بسطها أمامى فى فضول .. كانت  
مزقة فى أماكن .. ولكن الكتابة الهيروغليفية واضحة عليها ..

وقال المعاون إنها ليست البردية الوحيدة التى عثر عليها  
فهناك برديات أخرى ..

وقد عثرت بالفعل فى الغرفة الثانية على عدة برديات مكتوبة  
باللغة الهيروغليفية . وهي اللغة الهيروغليفية المحترقة .

والأسلحة والبروس والرماح . تشير إلى دجا

هل كانت المقبرة لرجل وزوجته ، هذا ما تبين من متاعهما بعد أن سرت .

كانت أوراق البردى في حقيبتى تعدنى بالكثير .

وأخذت مذكرات مختصرة بكل ما وجدته في المقبرة .

وعدت إلى منزى أحتضن أوراقى . وكأنى أحتضن عشيقه ..  
وفى صربى عودة هطلت الأمطار شادة .. وبلغت منزلى ووثابى  
تعصر عصير .. كآبها سسحة مكتنفة .. وتقطر بالماء .. وفى ذات  
الليلة لم أتم .

بسطت أول بردية .. فى شوق ..

وكانت بردية عجيبة ..

كانت كلها أرقاماً ..

وأن أعرف أن الفراعنة عرفوا الحساب والهندسة ، وبرعوا فى  
علوم الرياضة . . ولكنى لم أكن أتوقع أنهم بلغوا هذا القدر من  
الدقة والتفوق .

كانت أمامى أرقام عشيرة ومعادلات وعمليات جمع وضوح  
وغرب الكسور .. ونظرية شبيهة بنظرية مربع الوتر للمثلث ؛  
وكيف أنه يساوى فى المثلث القائم الزاوية مجموع المربعين

تأمن على الضلعين الآخرين . . ونظرية المتواليات الهندسية . .  
سأجيبات الهندسة الأقليدية .

والأرقام من الواحد ( و ) إلى المائة ( شاع ) إلى الألف ( خا )  
إلى المليون ( حج ) ومضاعفاتها وكسورها .

روخت أى ثلث . . ( رو معناها جزء وخت ثلاثة . . أى  
جزء من ثلاثة ) ويكتبونها هكذا :



والربع ويكتبونه هكذا :



والجذر التربيعى ويكتبونه هكذا :



وتوقفت عند معادلة لم أفهمها ..

وضاعف من صعوبات القراءة أن البردية مكتوبة بلغة  
هيراوطية . أى هيروغليفية مختزلة ، وكانت بعض الاختزالات  
غير مفهومة وغير واضحة .  
كان الكاتب أحد علماء الرياضة . وكان يعرض طريقة حساية  
دقيقة . لقياس درجات الزوال الشمسى .

إنها إذن مذكرة فلكية . .

وأنا أعرف أن الفراعنة درسوا الفلك ، وعرفوا توقيت الفصول

والشهور وما انت اشد بهر معناه حفظ - اسمة هيروغليفة  
تدعى بشور.

فشر توب هو توب - بهر - غيبية

و كيهت هو ك ه ك - بهر - غيبية

وما هو صوب - بهر - غيبية .

و برم د ه د - بهر - غيبية

و - د ه د - بهر - غيبية

و - د ه د - بهر - غيبية

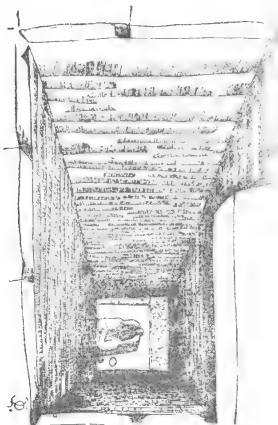
و - د ه د - بهر - غيبية

و لغة اسمة حفظ لنا لتحق الهيروغليفي . وإن كانت مكتوبة  
حروف و بهر . فكلمة ه من بالتقطيع معناها بلد ابنا و .

وقد اكتشف شميون لها معنى رعمسيس (رع بلد ابنا)  
وقد رموز اللغة الهيروغليفية بمساعدة حجر رشيد .

بعض الهيروغليفة تحت عدة ألفة سنة . ن م د  
بعضها رهن لأقدم في أديمه حروف يونانية

و م قرأه ن م . هو م ح . واس م م م .







وعلمت أن البردية هي واحدة من عدة برديات تتناول في التحنيط .. ولكنني وجدت أنها البردية الوحيدة .

وكانت البردية التالية عن الطب والجراحة

وكانت فيها معلومات عجيبة عن تقدم الطب في ذلك العصر

في مذكرة عن الجروح . روت البردية كيف كانت الجروح النظيفة تعالج بالخياطة والأربطة اللاصقة والضم الطري أول يوم ثم بالأعشاب القابضة والعسل لإيقاف النزيف .

وفي مذكرة عن الحمى . وجدت هذه النصيحة :

إذا أصيب الجسم بالحمى<sup>١</sup> وحدثت به تقلصات .. وإذا وجدت وجه المريض قد غطاه العرق والبرد ، ونفرت عروق رقبته وتصلبت أسنانه . وأزرق وجهه ، وانتقبض فيه ، والتوى حاجباه<sup>٢</sup> . وبدا وكأنه يبكي .. فقل .. هذا مرض لا يُقدر له على شيء ..

١. مذكرة عن الكسور ..

إذا تفحصت رجلاً مصاباً بكسر في الترقوة ، ووجدت بها قصراً<sup>٣</sup> . فقل .. هذا مرض سأعالجه ، وأطرح الرجل على ظهره ووضعت بين لوحيه شيئاً ملفوفاً ، حتى يبتعد جزءا ترقوته ، ويرجع الكسر إلى موضعه .. وبعد ذلك ثبت وسادة من الكتان على

الجانب الداخلي من ذراعه . وهو نفس العلاج الذي يعالج به الجراحون كسر الترقوة إلى الآن .

والظاهر أنهم لم يخلوا علاجاً للزكام .. وكان حالهم فيه كحالنا .. فقد قرأت هذه التعزيم للبرد الزكام مكتوبة في البردية :

انصرف يا ابن الزكام ، الذي يكسر العظام ، ويهشم الجمجمة ، وينخر المخ ، ويصبب المرض في فتحات الرأس السبع .. لقد أحضرت لك جرعة خاصة ضدك ..

أما الجرعة فواد مركبة من لبن امرأة وضعت مولوداً ذكراً ، ومن عصير نبات ، لم أعرف نوعه ..

والأغرب أنها جرعة ملطفة لالتهابات الزور .

وفي أمراض العيون قرأت هذه الوصفات :

لعلاج التهاب الجفون ، نقط من الصبر ، وسلفات النحاس ، ( التوتيا الزرقاء ) تقطر في العين بواسطة ريشة نسر .

وفي مرض الشعر ..

نصحوا بانزعاعها ، ووضع مرهم من دم الخفاش ..

ولرمد الحبيبي ..

الكحل ، وسلفات النحاس ، وكبريتات الأنثيمون ..

وصادفت في البردية أحقر من ثلاثين صنفاً من الأعشاب  
والنباتات ، والمواد المعدنية ، التي توصف للأمراض .. وبعضها  
تجمع عليه مثل البابونج ( نظرد الديس ) . والقروص ( لعلاج  
الرمه ) . والكوليك والخرجل والقفاح والمر والعنص وجوزة  
العطيب وحية البركة والأفيون والسكران والحشيش ويصل الدواء  
وشعر الجن والمائيزيا والزنجار وأملاح الحديد والنحاس والرصاص  
والأتيمون .

وقرأت عن ألوان من التخصص عجيبة .. مثل التخصص في  
تحضير الحقن الشرجية .. ويسمون القائم بها .. راعى الشرج ..  
هذا عدا التخصصات العادية في أمراض النساء .. وأمراض العيون  
والكسور .. والجروح .. والحروق .. والأورام .. والأسنان .  
وفي البردية وصف دقيق للذبحة الصدرية :

إذا فحصت مريضاً يشكو من آلام في صدره وذراعه وناحية  
من معدته .. فقل .. هذا مرض خطير .. والموت يهدده ..

وكانت هناك ملاحظات دقيقة عن تشخيص الأورام باحبارهم  
والدق عليها بالأصبع ..

كنت أمام طبيب كبير وعالم بالفلك والهندسة والحساب  
والحنيط .  
من يكون .. ؟

هل هو أمحوتب .. الطبيب المهندس العالم ، أيام الملك زوسر ،  
وملوك الأسرة الثالثة ، صاحب هرم سقارة المدرج .. والذي  
قد أنا أنه هو الذي أشرف على بناء الهرم المدرج ووضع تصميمه ؟  
ولكني لم أجد له تمثالا واحداً ، ولا رسماً ، ولا اسماً محفوراً  
في المقبرة ..

ولم يرد ذكره مرة واحدة في البرديات ..

أ يكون السبب أن المقبرة ليست مقبرته ، وأنه منقول إليها بعد  
نهب مقبرته الأصلية ..

عدت إلى الكتب التي كتبت عن أمحوتب .

وظللت أقرأ حتى الصباح حينما نقلت أجفاني من التعب وكنت  
ما زلت أفكر في أمحوتب ، وفي التحنيط ، وفي علاقة أمحوتب  
بالحنيط وبالطب وبالفلك ، وانطبقت أجفاني ، وذهني ما يزال  
مشغولاً ..

• • •

وفي ما يشبه الحلم ..

أقول ما يشبه الحلم لأنني اعتقد أنني لم أكن نائماً .. وإنما كنت  
في حالة استرخاء شديد ، وشبه غيبوبة من التعب ..  
رأيت ما يشبه أمحوتب في ثيابه القرعونية .

وحينما اقترب منى ، خيل إلى أن وجهه يلتبس على بوجه آخر  
أعرفه ، وكان المئزر القرعونى الذى يضعه حول خصره ، يشبه  
لإزاراً آخر ، كان يضعه رجل آخر نصف عربان مثل هذا الرجا  
ودقت فى وجهه ..

نعم إنه البراهما واجيسوارا ، بعينه ، فى ثياب فرعونية  
ومشية فرعونية .. وعلى وجهه ذلك الجلال الذى كان على وجه  
أعحوت القديم ..

وابتسم البراهما .. أولعله أعحوت .. لا أدرى ..  
وسمعه يقول ..

— أنا أعرف ما يشغلك .. أنت تريد أن تقرأ بقية البرديات  
التي كتبها عن التحنيط .. أنت تريد أن تعرف سر هذا الفن القديم .  
قلت وأنا أرتجف .

— نعم .

— ولكنه لم يعد سرا .. ولم يعد فناً .. وليس جذيراً به  
لهالة التي خلقتوها حوله .. وحينما كنا نقوم به فى الماضى  
تركه للمبوزين من أطح الفئات الشعبية لتأمره ..

إن كل ما أتمناه هو أن أعرف ماذا كانت تلك الفئات  
ة . التي تقوم بالتحنيط ، تفعل ؟ ..

.. كان التحنيط بكافة عملياته يحتاج إلى سبعين يوماً ، يردد  
أثناء الكهنة الصلوات ، ويشرفون على المراسم والطقوس ، وقد  
تدوا أقنعة ، على هيئة رأس ابن آوى ، تمثل الإله أنوبيس ، وهو  
به الموتى عندنا .

وكان الخط يبدأ عمله بتفريغ الجمجمة ، وكان هذا يحتاج  
لى معرفة دقيقة بشرح الجمجمة ، لأنه كان يقوم بهذه العملية  
بخطاف معدنى . عن طريق الأنف ، يخترق قاع الجمجمة ،  
وينفذ إلى تجويفها .. ثم يدير هذا الخطاف داخل الرأس ، حتى يهرس  
نخاعه . ويحوّله إلى هريسة . يفرغها مرة أخرى من الطريق نفسه ..

وبعد ذلك ، كانوا يفرغون البطن من خلال فتحة من الجانب  
..

ويستخدم المخطون فى ذلك سكيناً من الحجر الصوان . وكانوا  
يفرغون البطن والصدر من أحشائهما ومحتوياتهما ، ماعدا القلب  
يتروكه فى مكانه موصولاً بشرايينه . والكلى كانوا يتركونها فى  
مكانها لاصقة بالظهر .. وإذا حدث وانتزع القلب أو إحدى  
الكليتين بطريق الخطأ كان يتعين إعادتها إلى مكانها .. وقد كان  
هذا ضرورياً لاستمرار الحياة ..

وكان تجويف البطن والصدر يحشى بعد ذلك بالكتان المشيع  
بالمواد العطرية والصبغ والصلبغ والصلبغ ..

أما الأمعاء فكانت تملأ فى العادة بالمر والينسون والبصل

بعد غسلها بنبيذ البلع والمواد العطرية . ثم تلف بالضمادات وتحفظ في أوعية خاصة .

وكانت فتحة البطن تخاط بعد ذلك ، أو تسد بالشمع المذاب كما كانت تسد فتحات الأنف والقم والأذنين والعينين بالماء نفسها .

وبأق بعد ذلك دور التجفيف ، وهو أهم الخطوات لحفظ الجسم وصيانتة . وكنا نستخدم في ذلك ملح التطرون ، وهو ملح طبيعي ، من خصائصه أنه يمتص الدهن والرطوبة .

وكان ملح التطرون ، بالإضافة إلى هذا ، ملح مقدس عندنا وكان يمزج بالبخور ، ويغسل به القم ، أثناء الطقوس الدينية .

ولما كان الجلد يتسلخ ، والأظافر تنساقط غالباً أثناء التجفيف بالتطرون ، فقد كان لزاماً على المحضر أن يحيط طرف كل أصبع بكسيتين من الذهب ، أو المعدن ، ليضمن بقاء الظفر في موضعه .

وكان يغمس الجثة عمودية حتى العنق ، في أوان كبيرة مليئة بالتطرون ، بحيث يبرز الرأس فوق لحافة ، وبذلك لا يتسلخ ولا يتشوه بالملح .

وبعد الانتهاء من التجفيف ، كان الجسم يرفع من التطرون ويغسل بمحلول من الملح نفسه ، مضافاً إليه الزيوت العطرية . أما الأصابع فكانت تصبغ بالحناء ، والفجوات الناتجة عن تحلل

عضلات في أطراف الجسم . كانت تحشى بفسائنة لكتان . أو قشور الخشب والرمال . حتى تعود إلى سابق مظهره الطبيعي .

وكانت العمليات الأخيرة تجري والجسم ممدود على مناضد خشبية . تشبه مناضد التشريح . مجهزة ببالوعات أسفلها ، لصرف بولي الزائدة . وكل منضدة عليها كسيتان مستعرضتان من خشب . يوضع فوقهما الجسم مرتفعاً عن السطح ، حتى يتمكن كهنة المختصون بالتضميد ، ولف الأربطة . من تأدية عملهم . رية حول الجسم . وكانت هذه الأربطة تغمس في لصمغ وتدفق في ضقات متعددة حول القوميا . بينا الكهنة يقرءون الصلوات . . . . . ي تضمّن كل عضو على رد الحياة إليه .

هذه أكتال العملية كانوا يجمعون كل مايفي من مواد الكهنة المسخخة ، والأوعية الفارغة . ويودعونها في ركن من ركن من حجرة قديمة .

هذه كانت تنهى عملية التحنيط . التي ختمت خوفاً كل هذه . . . . . سرية .

تراها كانت فناً جديراً بكل هذه المداغة !!!  
من يكون إذن فن التحنيط ، من فن النحت . والموسيقى .

يبدو أن خيالك ذهب بكم بعيداً ..

وسكت .. ونظر إلى مبتسماً ..

وهفت في حشجة :

— ولكن من أنت .. إلى أعرفك .. أعرفك .. أنت البراهما  
لقد لقيتك من قبل .. وجلست إليك .

— منذ أربعة آلاف عام .. ربما .

أعوتب .. البراهما .. مستحيل .

أو الاثنان معاً . لم لا ..

مستحيل ..

وتراحت الكلمات في في .. وكنت أريد أن أسأله عن الطب  
على أيامه ، وعن الفلك وعن السحر ، وعن الحياة الأخرى ،  
ولكنني كنت أتكلم . فلا تخرج من في ألفاظ .. إنما يخرج هواء ..

وكان قد بدأ يعطيني ظهره وينصرف ..

حاولت أن أصرخ لأوقفه ، ولكن صراخي كان يخرج من في  
هواء لا صوت له .

— ٨٨ —

كن هو البراهما ذاته في مشيته وجلاله .. ولكن كيف .

كيف .. ؟

نه .. أي أختنق برغبة حادة لا أستطيع أن أحققها ..

تفطنت وأنا أعاني ألماً عظيماً في حلقى وصدرى . وكأني كنت  
.. وأنت لعدة ساعات

وكنت ما زلت منكفئاً على مائدتي وأمامي البردية الأخيرة

وما أن تمالكك حواسي حتى أسرع أدون في عجلة ماسمعه  
.. من .. تحيط في جسمي

.. حيث من مرجع هيرودوت لأقرأ ما قده عن تحيط .  
.. .. جسم ماسمعه في جسمي

.. .. است مدحوة حبيب كمشف أن أعب ماسمعه مكتوبة حصه .  
.. .. هيرودوت عن تحيط وهي ترويه في حوى  
.. .. من تكديب

.. .. من هذا .. كلام أعوتب .. في تحيط .. بعد فيه  
.. وأن ما خافاه حوله ليس إلا هالة من المبالغات

وكنت أفكر في أعوتب الذي رأيته في المنام

هل هو أعوتب حقاً ؟ ولماذا يقول أنه أعوتب والبراهما في  
.. .. وقت .

يف يكون هو نفسه . وهو الآخر في نفس الوقت

كيف أكون أنا نفسى ، وأنا الآخر فى نفس اللحظة .

وكيف يتعاصر الماضى والحاضر . . أم أتى أهذى .

أم أن انشغالى الشديد ، هو الذى صور لى كل هذه الرؤى .

وقراءاتى فى هيرودوت هى التى أعادت نفسها على لسان هذه  
الأشباح التى توهمتها ..

إننا لا نرى فى الأحلام إلا نفوسنا وانشغالاتنا وهمومنا . .

ونحن فى العادة نتحدث على لسان كل من نسمعهم . وكل مر  
نراهم فى أحلامنا . .

وكان المطر قد عاد يلقى على النافذة ويهطل بشدة . .

وما لبثت أن عدت إلى النوم على صوته الرتيب . .

وكان هذه المرة نوماً عميقاً كأنه الموت . .

كان نوماً كأنه الموت ..

وكأنما انسدت عدة أستار سوداء بعضها فوق بعض أمام  
الرؤى .

وكأنما ثقلت الرأس ، فإذا هى جبل من حديد .

وكأنما ذابت الأطراف فأصبحت عدماً ..

ولكن ثمة حياة ظلت هناك تحت هذا العدم .. ثمة وجود .

فأنا موجود وسط هذه البحار الممتدة من الظلمة والسكون .

أنا موجود تحت الردم .

.. هنا ..

فى أيدوس .

.. فى أيدوس .. نعم ؟

وأنا أثبتين المكان حولي جيداً .

إنه محفل هائل .. وهناك زينات أمام المعبد .. والملك والملكة جاءا محمولين على محفيتين ملكيتين .. وهناك خلق كثيرون قد غرروا راكعين حينما ظهر الملك .

الملكة تبسم .. أنا أعرفها .. إنها نفرتارى . والملك هو أممس .

والكهنة يروحون ويحبثون بملابس أرجوانية ذات آس واسعة

وهذا هو « نون محب » حكيم القصر .

ونون محب يميل على هامساً وهو يشير إلى أحد الكهنة .

— هذا هو الكاهن الذى سيمثل دور أوزيريس .. وهذه هى الساحرة التى ستمثل دور إيزيس .. وهذا هو ابنها حور .. إنك لن تستمتع بالمرسحية إلا إذا عرفت قصة الآلهة عندنا ..

وأخفى نون محب وراح يتمشى بي تحت كرمه ذات تعاريش كثيفة .. وكانت استعدادات التمثيل تجري على قدم وساق وراء المنصة الكبيرة على شاطئ النيل ونحن نتحدث .

قال نون محب .

— تقول أدياننا أن الكون بدأ على صورة فضاء أزلى . بلا

حركة . ولا حياة . ثم قام فيه رع إله الشمس ، الذى خلق نفسه بنفسه .. ومن ثم رع ، ومن أنفاسه ولد شو ، وفتنوت ، الذين تزوجا لينجبا نوت ربة السماء . وجب . إله الأرض ، وتزواج جب ونوت ، وأنجبا الأخوة الأربعة : إيزيس ، وأوزيريس ، وست . وفتيس . وهكذا تألف التاسع الإلهى الذى يحكم الكون .

ثم بدأ الصراع بين الآلهة ، فقتل ست أخاه أوزيريس ومزقه إرباً وألقى بأشلائه في الجهات الأربع ، واستولى على ملكه .

وأشار إلى المسرح :

— ها هو العرض قد بدأ . . وها هو « ست » ملفعاً بعباءته السوداء . وعلى وجهه قناع مفزع ، يتسلل إلى المسرح . ويفتال أوزيريس .

— هل هو يمزقه بالفعل .

لا .. إنما هى براعة التمثيل ، هى التى جعلتك تظن أنه مزقه . وما هذه الأشلاء التى تطايرت في الفضاء إلا أشلاء دمى .

وها هى إيزيس تظهر على المسرح ثائرة باكية ، تجمع أشلاء أخيها وزوجها القتيل أوزيريس . . وها هى تقرأ الصلوات والتعاويذ . وتضم الأشلاء ، بعضها إلى بعض ، ثم تحيها بالسحر ، فتعود إلى أصلها ..

والأناشيد التى تسمعها . هى أناشيد الفرح يبعث أوزيريس ، يرتلها الكهنة .



وليزيس وأوزيريس الآن ، في خيمة الحب ، بقيادة  
وحوريات المعبد يرقصن ويرتلن :

أوزير يا واهب انخصب والثاء

يا باعث الحياة في أجنة البلور

يا واهب الثمار للأشجار

ونائر الأزهار

على ربي الصحارى والسفوح والجبال

وها هي ليزيس قد حملت من قبله أوزيريس

وأوزيريس إله الإخصاب قد أودعها بقرته

وها هي ليزيس تلد ابناً إلهي حور - بين أغاني المنشادات :

يا حور .. يا عيوننا التي لا تنام

يا ساهراً على العدالة .

وحور إله الحق والعدالة : يتطلع إلى اليوم يثأر فيه لأبيه  
من قاتله ، ويسترد ملكه . وهزم إله الشر : ست ، وأنت ترى  
المتفرجون من عامة الشعب . قد بدأوا الآن يخططون بالكورس

ويجربون في التثليل ، وقد انغمم الأخيار منهم إلى حور والأشهاد  
نست ، في المعركة الأزلية بين الخير والشر .

وها هي الأبوأق تدوى في نذير الشؤم والحرب .. والمعركة  
بحر حامية بين حور ، وست .. والسيوف تلتحم .. والرقاب  
تقطر .. والضحايا تسقط .. والدماء تسيل .

وليزيس تطلق البخور ، لينتصر ابنها على عدوه .

وبقية التأسوع الإلهي ، يرقب المعركة الدائرة في حياد .

وهي معركة استمرت ثمانين عاماً .. ولم ينتصر فيها أحد ..  
فافترح ست أن ينقم كل منهما صورة فرس البحر ، ويلقى  
بنفسه في أعماق النيل .. ومن يستطيع منهما البقاء تحت الماء مدة  
طول من الآخر ينتصر .

وها هو ست . يلقي بنفسه في الماء ، ومن خلفه حور ..  
مهما النيل .

وها هو ست يقذف على الشاطئ بعين حور .. لقد قلع ست  
عين حور .. وقطع حور خصية ست .. وها هو يلقي بها هي  
لأخرى على الشاطئ ..

وها هما خارجان من الماء في وقت واحد جريحين ، لم  
ينتصر أحد منهما ، بعد كل تلك المناجح .

نحن الآن في فترة استراحة . . ويمكن أن نتناول شيئاً من  
الطعام .

وذن المسرح يتحول في تلك الأثناء إلى سباط ممدود ، عليه  
مئات من أواني الجعة والتبيل ، وأعداد من سلال التين والعنب ،  
واللون من الفطائر والحلوى والدجاج الخمر . . وكل الموجود  
بشركون في الطعام .

وقال لي نون عجب ، إن هذه المسرحية تستمر لعدة أيام . . وأن  
فصولها العديدة تمثل يوماً بعد يوم ، طوال فترة الأعياد ، وهي  
كالعادة لا تنتهي إلى نهاية ، شأنها شأن صراع الخير والشر ، الذي  
- لا نهاية طول الأزل .

وغاب لحظة ، وعاد معه فطيرة ناوفا إلى .

- فطيرة مقدسة من فطائر العيد . . هذه الفطائر باركها الكاهن  
الأكبر ، بتعاويذه وصلواته ، وهي تزيد من قوة من يأكلها ،  
وتطيل في عمره .

قلت فجأة :

- هل تصدق هذا الكلام الفارغ ؟

ولنظر إلى في دهشة وقد انعقد لسانه . . بينما أردفت :

- هذه البركات التي يوزعها كاهنك الأكبر ، ومن وراءه  
أسوعه الإلهي . . وهذا الكلام الفارغ عن إيزيس وأوزيريس .

والإله رع ، يعيد إلى حور عينه ، وإلى ست خصيته  
ويقترح إجراء محاكمة عادلة . يشترك فيها التنازع الإلهي .

وست . يشترط أن تجري المحاكمة في جزيرة متعزلة  
وآلا تحضرها الساحرة إيزيس .

وها هو « عني » يجذب بالقارب المقدس إلى الجزيرة ، وه  
ست ، وحور ، وبقية الآلهة . وإيزيس متكررة في هيئة عجوز  
حتى لا يعرفها عني .

وها هي إيزيس في الجزيرة ، تسحر نفسها على هيئة عذ  
فاتنة ، يقع في حبها ست . ويفازها . فتحكي له مصيبتها ، وك  
أن ابنها سطا عليه لص وسرق ماشيته من الخطيرة . . وست ي  
مستكراً . . وكبت سطا اللص على الماشية ، وأين كان ر  
العائلة ؟ . . إنه لخير أئيم . .

وإيزيس تصرخ صراخاً حاداً عند سماع كلماته ، وتتح  
إلى طائر . وتحط على فرع شجرة ، وهي تناديه ساخرة :

إليك على نفسك . . إن فلك هو الذي قالها ، ومهارتك ،  
التي حكمت عليك ، أيها اللص الذي سرقت ابني ونهبت ملكه  
أيها المجرم الأئيم .

وها هو ست ، يلطم خديه ويذهب باكياً إلى رع .

وتنتقل الأبواق ، وينشد المنشدين معلنين انتهاء الفصل  
الأول من المسرحية .



مومياؤه خوفة وتابوته وتحفه . ما زالت سبعة في مكانه بالحرم ،  
م تصل إليها يد . . . والذئب تغارح . وضع للتضليل .

وكان هذا الكلام قصة - نسبه في كهف -

هتفت في غضب :

وأين إذن توجد عرفة دون الحقيقة . إذا كان تابوت  
لذي عثر عليه ، يوزن وحمياً .

أسفل نهر سريه - تكتشف بعد .

وكيف يمكن وصول إلى ثقب الهرم ؟

ونظر إلى نون محب في استغراب .

ولم استطع أن يخفي دهشته لفضولي الزائد ، فقال ضاحكاً :

— هل تريد أن تشترك مع النصوص في حلة أخرى .

— أنا . . . لا . . . إنما هو مجرد فضول للحقيقة .

— إن المكان لا يعرفه إلا الكاهن الأكبر في معبد الشمس .

وأردف بعد فترة صمت :

وهذا قبر - أخرى بأن المكان مكتوب في بردية - في  
مقبرة كهف - حرأون ، لذي هي هرم . وقد سمعت كهنا من



المرتلين في معبد الشمس يقول : إن الباب الحقيقي يوجد على نقطة ما في الضلع الشرقى للهرم . . والحقيقة كما قلت لا يعرفها أحد .

— وهل يقول كهنتكم أيضا أن « أبو الهول » تحته غرفة سرية ؟

— لا . . إن أبو الهول ليس مقبرة . . إنه تمثال الإله آتوم وهو نفسه إله خيس رع ، في رحبته في عهد خضيت كل . . .

وقد تحول إلى أسد ليهرم أعداءه من الجن والمردة من سكت علم الظلمات . . والتمثال منحوت في كتلة مصمتة من الصخر ، وأمامه

معبد عظيم . . وكان الكنعانيون يعبدونه : على أنه إلههم « حورون » أو « حول » ومن هنا جاء لكم اسمه « أبو حول » أو « أبو الهول » .

— أنت أستاذ عظيم في التاريخ .

— أشكرك .

— ولكني لا أصدق كيف تكون نون محب ، وأنت تعرف أشياء لم ترها في عصرك . . وكأنك عشت في كل العصور

— حقاً . . إنه لشيء رائع أن يعيش الواحد منا في كل عصور .

— لا أفهم كيف يمكن أن تعيش في الماضي وفي الحاضر في نفس الوقت ، وكأننا كل اللحظات قد تعاصرت بين يديك . . وكأننا

الزمن عندك هو الأبد .

ومن يدرى . . ربما كان الزمن هو الأبد ، الفعل . . وربما كان . . من خفيته يتوقف عن تحريكه شيء عرش .

خريفه شيء عرش . .

« صرقت سحرًا خطيء » ثم قلت وأنا فكر

في أعجب كيف يمكن أن تكون أنت . . .

شعر . . .

من نحن واحد .

وهو منسج منسجة عميقة

ونظرت إليه . . كأنه هو إبراهيم نفسه . . لرجل الذي عاش في الأسماء والأزمان . . واحتوى الأبدية في دماغه .

وكان الكورس والممثلون قد بدأوا ينقطرون على المسرح ويستعدون لأداء أدوارهم . . وكان كهنة يرتدون أثرا به لكهنوتية .

ويضعون الأقنعة المربعة على وجوههم . . ولكن المطر كان يهبط تدريجياً . . والأشكال كانت تنوب وتختلط في سبيكة من النور

اليهم تضايق العين . . والموسيقى كانت تتحول إلى ضجة . . كنت أشعر بالضيق الشديد . . وأقلب في مكاني . . وفتحت عيني لأجد أن الشمس في عيني . . والغرفة فارغة .

وبطرفة مريعة إلى سعة يدي . . كشفت أنني قد كنت أكبر

من ثلاثين ساعة متصلة .

وقعت من مكان كفى تقوم من ور  
وكانت أهداه الخمر عريبه .. ب تصردنى  
هرم لا كبر .. وهرقة سريه فى .. تكشف ..  
.. ثم لا تكفى .. يصدق .. هيب  
.. ست تم .. حم أبوه فى ..  
وتدونت قصوى سره

وكانت فى .. سب حدى فى سكره .. ثم صر عوفه .  
وأن .. بعد صر .. سكر .. كى صر فى صر هه  
.. كنه .. كى .. صر .. حتى سكر فى صر  
.. حتى .. كى .. كى  
وينا كى أنقى صر .. كى .. كى .. كى  
.. كى .. كى .. كى

وينا كى كى صر .. كى .. كى .. كى  
.. كى .. كى .. كى  
وكانت كى .. كى .. كى .. كى  
.. كى .. كى .. كى .. كى

بعد أربعة آلاف سنة ..

بعد أربعة آلاف سنة .. هن هذا شىء يصدق ؟؟

بعد أربعة آلاف سنة .. تدب الحياة .. ويقوم الجنين الثامن  
من نبوته ؟؟؟ !

كنت أفكر فى « حم أبون »

كان هذياناً .. ولكن أى شىء لم يعد هذياناً ؟؟؟

لقد نبتت حبة القمح بعد موت أربعة آلاف عام فى باطن  
أرض .. وسقت حقائق الواقع غرائب الخيال المجنح  
.. بعد .. هه مستحيل .

كنت معبوسى عن ( حم أبون ) أنه ابن سفرو .. وأحد  
نخوة خوفو .. وأحد الذين أشرفوا على بناء الهرم الأكبر فى المرحلة  
الأولى من سائه .. فقبرته مثل مقابر الأميرة الملكية . لا بد موجودة  
فى الحية الشكية حول الهرم .. ووصور .. إليها ليس أملاً بعيداً .

استخرجت إدفأ بالحفر فى الجبانة الملكية .. وذهبت على رأس  
فرقة من العمال إلى منطقة الهرم .

وبدأت بالطواف حول المقابر التى كشفت عنها بالفعل . وكانت  
لها مسروقة ولا وجود لشيء فيها سوى الجدران .

ثلاثة أهرامات صغيرة تحولت إلى ركام. هي مقابر زوجات خوفو الثلاث ، تليها مقابر الوزراء ، وكبار رجال الدولة والكهنة. رسمت خطأ على امتدادها ، وأمرت بالحفر .

وبه كان الحفر يجرى .. كنت أقرأ النقوش على كل جدار قائم . وكل قطعة حجر . وكل ضلع ملقى على الرمال . بحث عن إشارة . أو خبر عن « حم أيون » .

جلبت معي كل المراجع البردية التي ذكرت خوفو وهرمه.. وكل ما كتب من أساطير وقصص . حول خوفو وأسرته .

كنت أعلم أن الحفر سوف يستمر يوماً ..

وكانت السلوى الوحيدة أن أقطع الوقت في الحفر على طريقي .. في بطون الكتب .. وخوفو شخصية أسطورية في الأدب المصري القديم . مثل عنتر عندنا .

ولهذا وجدت أكثر من مادة قصصية تدور حوله .

في بردية يعود تاريخها إلى الأسرة الثانية عشرة ، وجدت هذه القصة الغريبة عن مغاليق الهرم .

كان خوفو يريد دائماً أن يعرف سر مغاليق هيكل تحوت ، صنع مغاليق تماثلها في هرمه .

وسمع خوفو عن الساحر العجوز « ددى » الذي « انتهى بيغ من العمر مائة سنة وعشراً » ، ويأكل كل يوم خمسمائة رغيف . ويشرب مائة إناء من الخمر ، ويأكل فخذ ثور ، ويجعل الأسد يسير خلفه وديعاً كالكلب . ويعرف سر مغاليق هيكل تحوت .

وطلب خوفو من ابنه أن يسافر بنفسه ليحضر له ذلك الساحر .

وذهب الأمير الصغير إلى قرية سفرو ، حيث يوجد الساحر .. وكان الأمير يجلس ممدداً على محفة من الأبنوس ، يحملها العبيد .. وعندما وصل إلى منزل الساحر ددى ، وجده نائماً على حصير أمام عتبة بيته ، واثنان من الخدم يدلكان له قدميه .

ونفس ددى لاستقبال الأمير وحياء أحسن تحية .

وقال الأمير : إنه موفد من أبيه الملك ، ليدعوه إلى قصره ليشتمع بأحسن المأكول والمشرب .

قال ددى : في أمان .. في أمان يا حور ، يابن الملك الذي نحمه أبوه .

وذهب معه إلى شاطئ النهر ، حيث كانت السفن راسية في انتظاره :

وطلب ددى أن يخصصوا له سفينة لأجل عائلته ، وسفينة أخرى لأجل كلبه وعظوماته ، فخصص له الأمير السفينتين .

ولما وصل ددى إلى القصر ، استقبله خوفو في قاعة القصر الكبرى ، ذات الأعمدة ، وباده قاتلاً : لماذا لم أرك قبل الآن ؟

فأجاب الساحر : يأتي الإنسان عندما يدعى يا صاحب الجلالة .

فأجاب الساحر : يأتي الإنسان عندما يدعى يا صاحب الجلالة .

قال جلالتة : هل صحيح ما قيل من أنك تستطيع أن تعيد رأساً مقطوعاً إلى مكانه ؟

فأجاب ددى : نعم أستطيع ذلك يا مولاي الملك .

فأمر خوفو بإحضار أحد المسجونين المحكوم عليهم بالإعدام .  
ولكن ددى قال : إنه يفضل أن تكون التجربة على حيوان .

فأحضروا له أوزة وقطعوا رأسها ، ووضعوا جسمها في غرب القفحة ، ورأسها في شرقها ، وأخذ ددى يتلو سحره وتعاويذه ، فأخذت الأوزة تتحرك ، وكذلك رأسها حتى تلاقيا ، فركب الرأس في مكانه فوق الجسد وعادت الأوزة للحياة وأخذت تصيح وأعادوا التجربة مرة ثانية في بطة ، ثم في ثور ، فتنجح في إحيائها .

ثم سأله خوفو : إذا كان يعرف سر مغاليق هيكل نخوت ؟

فأجاب ددى : بأنه لا يعرف سرها ولكنه يعرف مكانها .

فلما سأله عنها قال : إنها في صندوق من حجر الصوان في إحدى قاعات معبد الشمس ، وأنه لا يستطيع إحضارها .. ولا يقدر على ذلك سوى أكبر أطفال ثلاثة ، تحمل بهم امرأة اسمها ددت :

فلما سأله خوفو : ومن تكون ددت ؟

وتعنى قصة بعد ذلك . . . . .  
ضيافة خوفو . . . . .  
لأنه من الجعة . وثوراً كاملاً . . . . .

ونعرف بعد ذلك ، أن ددت . . . . .  
حلت ووضعت أطفالاً الثلاثة . . . . .  
وسحنت ، وحقت . هن اللاتي . . . . .  
الشعر ثلاثة تيجان ذهبية . . . . .  
بصبخون ملوكاً .

وتروي القصة بعد هذا . . . . .  
الغزل ، سمعت غناء وموسيقى . . . . .  
أن هذه الموسيقى صادرة من . . . . .  
وحبها نظرت في المكياج وج . . . . .  
أحمد . وأبيه سوف . . . . .  
عن جميع . حتى لا يضل . . . . .  
خوفو يدرك كل صف يعرف . . . . .

وتنف قصة ها . . . . .

ولكن خيرة الموحود . . . . .



من قلق .. وعلى حرصه في أن يكون لمرمه مغاليق لا تفتح ولا يصل  
إلى سرها أحد ، مثل مغالبة معد تحت

كنت أقرأ في هذه البرديات ، حينما جاءني أحد العمال يهرول  
فرحاً ، وفي يده لوح من الازدواز ، عليه كتابة هيروغليفيه .  
كانت الكتابة أشبه بتحية أو أغنية أوغسطية قيلت في الاحتفال  
بتتويج أحد الملوك وكانت ترجمتها كالآتي :

ياله من يوم سعيد ، فالأرض والسماء مبهجان ، لأنك سيد  
مصر العظيم .

لقد رجع الغاريون إلى مدنتهم ، وظهر أولئك الذين -و-  
مختبئين .

وأصبح الجامعون سعداء . وقد شعت بطونهم . وأصبح  
الظالمون مرتوين .

ومن كان عارياً ، أصبح يرفل في الكتان الجميل ، ومن كان  
أشمالاً ، أصبح يرتدى أجمل الثياب .

وأطلق سراح من في السجون

أما الأراامل ، فقد تركن أبواب بيوتهن مفتوحة ، وصار يدخلها  
ون .

وبتهجت لسمن . وهي فوق المحيط . لأن البحر اختفى موجه ،  
وأخذت السفن تصل إلى الشاطئ ، وهي تسير بالرياح وبالمجاديف .  
ولم يكن على اللوح إشارة إلى الملك المحتفل به ، أو إلى  
الكتاب .

وذهبت مع العسل إلى الملك . سي كشف فيه الفوح ..  
ولكني لم أجد مكاناً . أو قبراً . أو مصصة . أو بدء من أي نوع .  
وإنما مجرد كومة من الرمل .  
وأمرت بتركيز عمليات الحفر في هذه الكومة .

ووقفت على رأس العمال أخذت كل صغيرة وكبيرة تظهر على  
أطراف معاولهم

عثر في الرديم على جبات من الخرز الأخضر . وتمائيل  
صغيرة ، وذي من العاج ، وجعارين . وثلاثة ألواح أخرى .  
بها شروخ متعددة . لكن كتابتها مقروءة .. وهي أغنيات غزل من  
أخ لأخته ، ومن أخت لأخيها ( كان الغزل والزواج بين الأخوات  
أمراً مألوفاً في أيام القراعة . وأنتز مالوك القراعة . تزوجوا  
أخوانهم ، وأختاتهن تزوج أبنته ) .  
تقول الأخت لأخيها في الأغنية :

إلى .. يا أخى . إنه لجميل أن أذهب إلى البحيرة لأغتسل  
أمامك .

وأجعلك ترى جمالي ، وقد ارتديت ثوبي المصنوع من أجل  
الكتان الملكي عندما يبذل .



حيلة العينين ، علما تنظر  
حلوة الشفتين ، عندما تفتحها لتحدث

لا تنبس بكلمة ، لا حاجة لها

طويلة العنق ، حيلة الثدي

وشعرها أسود يلعب

ذراعها يفوق الذهب في طلاوته

أما أصابعها ، فمثل براعم اللوتس

ثقيلة الأرداف ، نحيلة الخصر

بنى ساقاها عن جماله

وما أرشق قدمها عندما تسير

لقد سلبت روحى مع قلبها

لأنها تجعل أعناق الرجال تنثني

مستديرة نحوها إعجاباً عند قلبها

ما أسعد الذى يلثم فيها

فإنه يصبح أقوى من كل الرجال

— ١١٤ —

كنت أمام قبر شاعر ، أو أمير مولى يجمع المخطوطات  
الغنائية .

• • •

لم يسفر الحفر طول النهار عن شيء جديد .. أخرجت الماعول  
قناطير من الرمال .. ثم لا شيء .

كانت قطع الحجارة التى يمر عليها مفتتة .

وتحت الحجارة كنا نجد تلالاً أخرى من الرمال .

وحينما كانت الشمس تغرب ، كان اليأس قد بلغ منى مبلغه .

وكنت أدور فى مكانى مثل نحلة تقطعوا رأسها .

كنت أفكر .. وأعصر دماغى .

وكل مكان فى رامسى أصبح مملوئاً بكلمة واحدة هى

« حم يون » .

حينما خرقت أذنى صرخة بلهوبة .

لند سقط أحد العمال فى حفرة .

وأسرعت نحو العامل وانتشلته ..

ونظرت فى المكان حيث انزلت قلعيه وسط الرديم ..

وبدأنا نزيل الرمال .

— ١١٥ —

لم تكن حفرة .. وإنما كان بئراً ..

وكانت سلام البئر واضحة.

كانت تنزل درجة درجة ، إلى قرب القاع ، حيث تبرز  
جوانب سقاية حجرية كبيرة ..

أخيراً ..

أصبحنا على بعد خطوات من غرفة الدفن

ونزلت الدرجات .. درجة .. درجة .. وقلبي داه من  
الانفعال .

• • •

وصلت إلى الدرجة الأخيرة في قاع البئر ، وكان قد سبقني  
هناك بعض العمال .. وكانوا يعملون معاولهم في السقاية  
حجرية ..

وبمجهود قليل أمكن إزاحتها ..

وانكشفت الغرفة الصغيرة ذات السقف الواسطي أمامي ..

وكان هناك تابوت من الجرانيت في وسطها محفور عليه اسم  
«حم أيون» .. وكان التابوت مغطى بغطائه ، ومنظره يبشر بأن  
المومياء الواقعة بداخله لم تسرق ..

ورفعنا الغطاء الجرانيتي ، ونحن نتأمل بالآمال لفجأ ،  
بالتابوت خاو على عروشه والجلفة مسروقة ..

لمنظر المعتاد الذي يكسر للقلب .. والذي يتكرر في كل مقابر  
هذا العصر ..

أغلب الظن أن الهكسوس لم يبقوا حجراً على حجر في تلك  
الأيام .. ولم يتركوا معبداً أو قبرا إلا خربوه ..

وكننت أقرأ النقوش الهيروغليفية على الجدران ، وفيها يروى  
 حم أيون . الأعمال التي قام بها .. كيف أنه قام على رأس بعثة  
 إلى جبل المغارة ببناء لإحضار الفيروز والتحاس .. وكيف نقش  
 اسم أبيه الملك المعظم سليل الآلهة خنوم خوفو وي ( الاسم الكامل  
 لخوفو .. وخنوم وهو الإله صانع البشر ، وهو يرسم دائماً على  
 جدران المعابد أمام عجلته المخارية . وهو يصنع مخلوقاته البشرية )  
 على مناجم التحاس ( وجد الاسم محفوراً بالفعل في مناجم التحاس  
 بسيينا ) .

ويروى حم أيون . في مكان آخر ، كيف رأس بعثة إلى مدينة  
 جبيل بستان . لإحضار الأخشاب .. وكيف بنى معبداً مصرياً في  
 جبيل . لعبادة إله الشمس .

وكيف اشترك في بناء الهرم الأكبر ، وفي هندسة المعبد  
 الجنائزي أمامه ، وكيف رصف أرضية المعبد بحجر الدولويت  
 الأسود المقطوع من محاجر القيوم .

وكيف أنشأ جسراً ضخماً ، ينزل من الهضبة حيث الهرم إلى  
 الوادي حيث معبد الوادي الكبير ، ورصد الفنانين لزخرفته وتزيينه  
 باللوحات الجميلة ( لم يكتشف المعبد ، ولا الجسر بعد ومكانه  
 بحسب الكلام يقع تحت نزلة السماء ) وفي أسفل الكلام إشارة عن  
 تغيير في تصميم الغرف الداخلية بالهرم ، وتعديل في بناء مسالكه  
 وممراته .. لكن النقوش الهيروغليفية متأكدة . والجدار محط  
 بشكل يجعل القراءة مستحيلة .. لكن ما لفت نظري ، هو رسم

هيرو في أقصى الجدار ، وعلى ضلعه الأيمن ( بالنسبة لوضع  
 حجر والمقبرة يكون هو الضلع الشرق ) علامة ، ويبدو أن  
 هذا شرح للنص المكتوب ..

وربما كان الكلام عن مدخل على الضلع الشرق للهرم كما قال  
 بوشب .

حتال .. مجرد احتمال ..

ولكن بدون هذا الاحتمال يبدو وجود الرسم الهرمي غير  
 مفهوم . لا يدرك حرفاً هيروغليفياً جديداً لا نعرفه في قواميسنا .  
 كنت منهمكاً في قراءة الكتابة الهيروغليفية . حيناً قال لي  
 العامل بجوارى أن هناك سرداب .

وكان العامل يطل من طاقة مستديرة في الجدار ..

وأسرعت إلى حيث يطل ، ووضعت عيني في الطاقة . لأجد  
 مثلاً محطماً . أغلب الظن أنه تمثال حم أيون نفسه .. وعلى مدى  
 ما ترى العين ، كان هناك سرداب طويل .

وكان لا بد أن توسع الطاقة ، لندخل إلى السرداب ..

وكانت على جدران السرداب ، صلاة إلى حورس ، الذي  
 يرعى أجسام الموتى . ليدل الميت على طعامه . ويعاونه على أن  
 يتغذى من قربانه . ويتنفس الهواء الطلق . حتى لا يختنق في  
 صندوقه . ويحور ويأكل من برازه ، ويشرب من يوله .

وعلى جانبي السرداب ، تراصت صفوف من أواني البيرة  
التمخارية .. وفي أحد الأركان إناء كبير ، فيه عدد من الحفارات  
البردية .. الكنز الثمين الذي كنت أبحث عنه ..

\* \* \*

وحينما عدت إلى مكاني في مساء ذلك اليوم ، كانني هناك  
أحلام كثيرة تراودني ..

أن خرافة « حم أيون » لم تعد خرافة ..

ونقوش المقبرة أثبتت أن تصميم الغرف الداخلية للهرم قد  
أجرى فيه تعديلات . والمسالك والمعرات السرية ، رسمت لها  
مداخل جديدة ..

والعلامة على الصلح الشرق للشكل الهرمى المرسوم ، لا بد  
أنها تدل على شيء ..

كنت أقرب بسرعة من السر ..

وبسطت البرديات أمامي ..

كانت مجموعة من الوصايا ..

مررت عليها بسرعة بحثاً عن هدفي ..

ولكن لم أجد سوى وصايا ، من السطر الأول للأخير ..

والظاهر أنها كانت الوصايا التي حفظها حم أيون عن أسلافه  
.. أو أنها جزء من كتاب الوصايا الذي كان يعلمه المعلمون و  
ذلك العصر ..

يقول البرديات :

احذر من الاقتراب من النساء في أى مكان تدخله ، فقد  
تعرّف ألف رجل عن جادة الصواب بسبب ذلك .. إنها لحظة  
قصدة كالحلم ، والموت جزاء الاستمتاع بها .

لقد سمعت بأنك تجرى وراء ملذاتك ، وتذهب من شارع إلى  
شارع . حيث تفوح رائحة الجعة من فمك ..

إن الجعة تنفر الناس منك ، وتودى بك إلى الهلاك ، وتجعلك  
كدفة مكسورة في سفينة ، لا تفيد في التوجيه إلى يمين أو يسار ..

لا يداخلك الغرور بسبب علمك . ولا تحتال وتفخ أوداجك ،  
لأنك رجل عالم .. استشر الجاهل . كما تستشير العالم ، فما من أحد  
يستطاع أن يصل إلى آخر حدود الفن . ولا يوجد الفنان الذي  
يبلغ الكمال في إجادته ..

.. الحديث الممتع ، أشد ندرة من الحجر الأخضر اللون  
ومع ذلك . فربما تجده لدى الأرقاء والجواري اللاتي يجلسن  
الرحى ..

هذه من روع الباكى ، ولا تنظم الأرملة ، ولا تعثر باناً  
من ثروة أبيه ، ولا تطرد موظفاً من عمله ، وكن عاقل . من  
مظلوم ، يضم الانتقام من ظالمه ..

لا تقتل . فإن ذلك لن يكون ذا فائدة ، بل عاقب بالضررب  
والحبس . فإن ذلك يقيم دعائم البلاد ، اللهم إلامن يشور عليك .  
وتنصح لك مقاصده . فإن الله يعلم خائنة القلب : والله هو الذي  
يعاقب بالموت ..

لا تقتل رجلا إذا كنت تعرف جميل مزايها .

ولا تقتل رجلا كنت تتلو معه الكتابات ( يعنى زميلك فى  
الدراسة ) .

لا يوجد شجاع فى ظلام الليل . ولا يمكن لإنسان أن يحترق  
وهو وحيد .

لا أصدقاء لأحد فى يوم الأمسى .

إذا كان لسانك هو دفة سيفيتك . فإن إله الكون هو ربنا .

إن الكلام يتدفق بسرعة عندما يغس القلب بالأذى . وهو  
أمرع من الشلال عند مجازج المياه . فاحذر من الاندفاع بمساءة  
الغضب ..

لا تقل : لست لى خطيئة « وتشغل نفسك بالتفكير فى  
خطايا الناس .. فأنه وحده هو المختص بالحكم فى خطايا الناس وهو  
الذى ختم على أقذارهم بأصبه

لا ترقد فى الليل خائفاً مما يأتى به الغد ، فأنه يحقق دائماً  
ما يريد ..

لا تتخذ الرجل مريع الغضب لك صاحباً .

لا تكثر من إصدار الأوامر إلى زوجتك فى منزلها ، إذا كنت  
تعلم أنها سيدة صالحة .. لا تقل لها أين الشيء .. أين مكانه .. أين  
أجده .. إذا كنت قد وضعته فى مكانه المجهود .. لاحظ بعينيك  
والإزم الصمت حتى تدرك جميل مزايها ..

يا لها من سعادة حينما تضم يدك إلى يدها .. كثير من الناس  
هنا لا يعرفون حال الإنسان ، دون حدوث الشقاق فى منزله ..  
ليكن قلبك ثابئاً غير متقلب ، ولا تدع امرأة أخرى تسرق  
فمك ..

ضاعف الحيز الذى تعطيه لأملك ، واحملها كما حملتك ..

لقد كنت عبثاً ثقيلاً عليها ، ولكنها لم تتركه للآخرين يعملونه ..

لقد حملتك تسعة شهور فى بطنها ، وظلت مغلولة بك ، وظل  
نسيها فى قلب مدى ثلاث سنوات ... وبالرغم من أن قد ذورتك  
شيء تنفزز منه النفس ، فإن قلبها لم يتقرز .. ولم تقل ماذا أفعل  
فى هذه القاذورات ..

لقد أدخلتك المدرسة عندما ذهبت لتعلم الكتابة .. وكانت  
تذهب من أهلك كل يوم تحمل إليك الخبز والجمعة من منزلنا ..  
والآن وأنت شاب ولك زوجة ، تذكر ما فعلته لك أمك .  
ولا تجعلها ترفع يديها إلى الله لتشكوك ..

لا تميز بين شخص ذى حيشة ، وشخص فقير ، بل عمل كل  
إنسان بحسب عمل يديه ..

لا تحدث ضرراً لمنى أقامه غيرك ، ولا تبني قبرك من أحجار  
الخرائب .

إن أذن الطفل موضوعة فوق ظهره ، وهو يحسن السمع عندما  
يضرب .

لا تقضى يوماً واحداً دون عمل . وإلا فسيكون الضرب  
نصيبتك .

إذا جلست على الأكل مع أشخاص كثيرين ، فلا تقبل كثيراً  
على الطعام . حتى ولو كنت تشبهه ، فإنه من الخجل أن يكون  
للإنسان شرها ..

إن كأساً واحدة من الماء تروى الظما . ولا فائدة من الإفراط  
فى الشراب ، قلن يقوى هذا قلبك .

تذكر أن شبابك هو أئمن كنز تملكه . وافعل فى شبابك ما يهينك

.. من عذوك ، فأنت لا تعرف الشيخوخة . حيث انعم مسكت  
رأسك . وليس ضيقك كثير . وإذا لم يصبك حشر .  
فعد كثير بسين . والألف مسدود لا يستحق خبر . وتقيم  
.. كلاً من مؤد . وطعم الحسن . كصم شبح . وعقل  
.. فى كل أحوال .

فى هذه خلاصة لكتاب الوصايا .. وأغلب هذه الوصايا  
هى مكتوبة شعراً .

وكانت هذه نهاية ما حصلت عليه من مقبرة حرم يون .

هل كان مقدراً لى أن أمضى وحيدى لأكتشف بقية أسر ..

إن كل الأدلة كانت تشير إلى أن الضلع الشرقى للهرم هو  
.. من أسر .

والضلع الشرقى هو أصعب الأماكن صعوداً فى الهرم . فأحجاره  
كبيرة وسليمة وحاددة الأركان ، وكل حجر منها كالجبل .

كنت مستغرقاً فى التفكير . حينما لفت نظرى كوه نبوسعة  
.. كنت

قد أغفلت أمرها طوال هذه الأيام . حتى تراكمت هكذا ..

وكانت أغلبها استفسارات من المتحف المصرى عن معبومات



ومواصفات خاصة بالقطع الأثرية التي اكتشفناها أخيراً، وعن ظروف كشفها ..

أما الخطاب الأخير فقد كان عليه طابع من الهند ..  
وفتحته في قلق ..

كان من أمرى خان ، يتعى فيه وفاة إبراهيم ، ويسألني عن أحوالي ، ويقول إن إبراهيم سأل عني قبل أن يموت ..

وتاريخ الخطاب ١٠ ديسمبر وهو تاريخ متفق مع ليلة اكتشافي لمقبرة أمحوتب ، وتلك الليلة التي قضيتها في أحلام مشوشة مختلطة ، وكانت صورة إبراهيم تختلط على بصورة أمحوتب طوال الليل ..

أمسكت بالخطاب في رهبة ورحت أفكر في إبراهيم ..

وتحيل إلى أنه بملاً المكان حولي ..

وحاولت أن أستلهم الصواب ..

إذا كان الإنسان له بقاء بعد الموت ..

وإذا كانت الأرواح المتحابة تتواصل ، فلا شك أنه سوف

يلهمني ..

لا يمكن أن يكون الإنسان هو ذلك التركيب المعقد من البروتينات والأملاح المعدنية ولا شيء غير ذلك .

إن هذه المواد البروتينية الحساسة ليست سوى جهاز الكتابة تنفيذي في بدو روح شفيفة تصور به فكرها وإلهامها ..

كنت أشعر أنه لا بد من الماضي في طريق إلى آخره لأكتشف الحقيقة أو أهلك دونها .

ولم يكن أمامي سوى سبيل واحد ..

هو الصعود على طريق الآلام ..

.. ولماذا تبحث عن باب سرى ، لتدخل منه إلى ماذا ؟؟

إن داخل الهرم أصبح مكشوفاً ، لاسر فيه ..

لمسالك والميسرات وغرفة الملك .. وغرفة الملكة .. والبنر  
كلها أماكن اكتشفت أمرها .. وفي إمكانك أن تدخلها بقرش ومعلك  
دليل من مصلحة السباحة يشرح لك ما تراه مجاناً ..

وحينما قلت له : إن هذه الممرات والمسالك والغرف مزيفة ..  
وأن تابوت الملك الفارغ وضعه الفراعنة للتضليل .. عاد يضحك  
.. ونظر إلى كأنه ينظر إلى مجبول ..

.. أنسيت أن الهرم كان نبأً مباحاً لكل مقتحم من أيام  
الحكوس إلى أيام محمد على ، حيث فكر التركي الغازى أن يقتلع  
حجارته ، لينقى بها القناطر الخيرية . . وأنه لم يوجد لصر هاو ،  
أو محترف ، خلال الأربعة آلاف سنة ، التى مضت إلا ونقبه  
بحناً عن الأسرار الخرافية التى تكلمنى عنها ..

الهرم لم تبق منه إلا خرابة مفتوحة نهبا للصوم ..

الهرم لاسر فيه .. أنت تحمل ..

ولم أشأ أن أقول له أنى أحلم بالفعل ..

ولم أشأ أن أروى له ما رأيته من أمر البراهما ، ونون محب ،

« الصعود على طريق الآلام » تعبير متواضع جداً عن الصعود  
على الهرم من حافته الشرقية ..

إنها مخاطرة رهبة محفوفة بالموت فى كل خطوة ..

كل حجر يحتاج إلى ساعة من الاحتيال حوله ، فهو أملس  
وسامق كالجلجل ، ولا بد أن تنبش فيه الأظافر والخطاطيف حتى  
تسلق عليه ..

وفى سن الخمسين يصبح كل شىء صعباً ..

كنت أستريح بعد كل حجر ، وكأنى قطعت عشرة أميال فى  
الجرى حتى فقدت أنفاسى ..

لقد حاولت أن أحصل من مدير مصلحة الآثار على أمر بتجهيز  
بعثة لاستكشاف الحافة الشرقية للهرم ، ورفع السقالات اللازمة ..  
وحينما علم المدير أنى أبحث عن باب سرى للهرم ضحك .. ضحك  
حتى استلق على قفاه ..

حتى لا يغمي في قيص الكفاف ، ويرسني إلى مستنق  
الغاذيب ..

وأخذت اغطارة كلها على عاتق وحدي ..

لم أجد دليلاً يقبل أن يصاحني في صعودي عبر هذه الخافة  
الخطرة .. ولم يكن منهم من يعرف طريقه لعبور هذه الخافة  
بالفعل ..

كنت أول من يرتاد هذا الطريق ..

وكان يعزني أني لن أحتاج لأكثر من الصعود إلى الثلث الأول  
من الخافة .. فالعلامة كانت في مكان ما بالثلث الأول ..  
إن آلاي لن تطول ..

وكنت أفحص كل حجر من جميع جوانبه قبل أن أرشق فيه  
الخطاف ، باحثاً عن مكان يمكن أن يكون باباً .. وأتخس الحجر  
الصلد وأدق عليه ، وأسمع الاهتزازات الصوتية بأذني ..

كانت كل كتلة حجرية مصمتة من جميع جوانبها .. فلا أثر  
يدل على تجويف أو ممر مفرغ بالداخل ..

ورحلت أرشق الخطاف وأصعد ..

وفجأة انحسرت بالخطاف بترلق وبهوى .. ورأيت عسى  
أندهور من خالق .. وأرتطم في أكثر من مكان من جسدي ..  
رصدت السماء على الأرض .. ورأيت وجه الترحم ، نظراً إلى  
شرق

\*\*\*

وحينما فتحت عيني كنت راقداً في سرير في مستنق  
ناعي وساقاي في جبال .. وحول صدري أربطة عديدة  
تدري .. حتى متى

.. حتى رأيت صهيب يصير إلى عهده .. به وبهوس ..

أقد نجوت بمعجزة ..

وكنت أخلق في الجبس والأربطة للاحقة التي تحيطني من كل  
مكان .. غير مصدق لهذه النجاة المزعومة ..

• يردف الصيب •

— نعم .. لقد كسرت ذراعك وساقك . وتحطمت بعض  
صوئك .. ولكن رأسك لم يصعب بسوء ، وعظم حوضك سليمة  
وهذا أمر خارق بالنسبة لرجل يسقط من أعلى الهرم ويرتطم  
.. بعد مرة بأحجاره .. لقد كانت الملائكة تحملك على يديها ..

وكان المذير يقف بجوار الطيب ويهتف في دهشة :

— أنت فقدت عقلك بلا شك .. كيف تفعل هذا الفعل :  
ألم أقل لك إن ما تفكر فيه هو الجنون بعينه ..

نعم إنه الجنون ..

وحياتنا كلها جنون ..

نحن نأكل الجوع ، ونشرب الظمأ ، ونحصد للندم . ونموت  
جهلاء ، كما ولدنا ، لانعرف من أين وإلى أين وكيف ..  
ولماذا .. كنا .. وكيف أصبحنا .. أليس هذا هو الجنون ..

كنت أفكر وشفئتي مضمومتان ، وعيناي حائمتان في الفرفة  
البيضاء كأنها الزهم .. وأنفاسي تؤلني كأنها مناشير .. ولأقوى  
على الكلام ..

وغرس الطبيب حقنة المورفين في ذراعي .

وهدأت المناشير ..

أصبحت مثل أفاعى لينة تلتف حول صدرى وتضغط عليه في  
حنان مخيف ..

• • •

نجم الظلام على الفرفة ..

وانقطعت خطوات النوبتجي المهران من الممر ..

وانسدل سكون رهيب ..

إن ما قاله الحكيم المصري القديم في كتاب وصاياه صحيح ..

حقاً .. لا يوجد شجاع في ظلام الليل .. ولا يمكن لإنسان

أرب وهو وحيد ..

بني أشعر بأنى أقرب من ختام قصتي ..

أشعر بالخوف يفتصبني اغتصاباً ..

أشعر أني فقدت الشجاعة ، وفقدت الوسيلة إلى أى شيء ..

مهما دراعى مكسورتان ، وأنفاسي هي الأخرى متقطعة

مكسورة ، وقلبي كبير ، وعقلي عاجز ..

نقد بلغت نهاية القدرة على طريق الآلام ..

وعلى الآخرين أن يكملوا الرحلة مستدلين بالعلامات القليلة

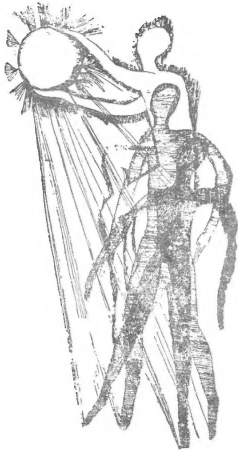
التي وضعتها على الطريق ..

لم أعد أستطيع أن أفعل شيئاً ..

وكيف يستطيع عقل وحيد ، يتحدى رؤى الواقع الصنيق أن

يعمل أكثر مما فعلت .. ما أنا إلا إشارة على الطريق ..

والطريق طويل بلا نهاية .. ولابد أن تتكاتف كل العقول



لإضاءته واكتشافه . . إن ما نعلمه قليل . . وما نجعله كثير  
لأحد له . .

والإنسان عدو لما يجهل . . وهو لهذا لا يحاول أن يفهم . .  
ويغلق كل باب يدخل منه النور بغايته وتعصبه . .

ولكن الحقيقة أعظم من أن يحتكرها عقل واحد ، أو مذهب  
واحد . .

والحياة فوق جميع المذاهب ، لأنها أصل لما جميعاً . .

ولكن التعصب يسد الطريق على كل عقل يحاول أن يجتهد ،  
ويحجب عنه المدد الذي يأتيه من البينوع العظيم الذي لا ينضب  
من الحياة . .

وحيثما تتحكم المذاهب في الحياة . : تتجمد الحياة وتترقب  
وتموت . .

تموت الدهشة . . وتموت الفضول والخيال والابتكار . .

تموت النشوة الحارقة التي يبعثها الجهول ، وتتحول الحياة إلى  
قواعد وقوانين يسونها علماء . . وهي ليست من العلم في  
شيء . .

العلم مفتوح الذراعين لكل الحقائق . .

العلم لا يفجر من مناقشة الوهم والهلديان والخرافة . . لأن  
المعرفة غير المحددة قائمه ، والتواضع خلقه . .

العقل لا يشي باللامعقول .

والإرادة لا تعرف المستحيل . .

سوف يرى الكثيرون في بعض ما رويته في قصتي خرافات

لماذا لا نحاول أن نفهم معاً ، بدلاً من أن نحتقر ما نجهله ،  
ونقول عنه خرافات . .

إن الحقيقة أقرب إلينا من أصص الرميحان ، التي نضعها تحت  
نوافذنا ، لو حاولنا أن نفهم .. إنها تحت أنوفنا ، ولكننا نستعمل  
أنوفنا وفقاً لتقاليد وضعت لنا من قبل . . لماذا لا نحاول أن نشم  
في حرية :

لماذا لا ننظر ببراعة الطفل ، لنرى الأشياء في جدتها المدهشة ،  
ولنرى الظواهر نابضة ، موحية بآلاف الحقائق . .

\* \*

ليس لدى ما أضفه لمواة الغيب . . فما عندي قد قلته .

وقد رتي بلغت نهايتها

وكل ما أملكه ، هو أن أشير إلى الحقيقة . أشير إليها بذراعي  
مكسورتين .

إن حياة تنتهي بالموت ، ولا بقاء بعدها ، هي حياة لا تستحق  
أن نحياها .

إنها ليست حياتنا .

إن حياتنا أعظم من أن تنتهي إلى اللود والتراب .

إن القداسة التي تنسم بها الحياة في صميمها ، تنفي عنها هذه  
النهاية الهائلة .

هل فكر أحدكم في نفسه :

هذه النفس التي صيغت من مادة الهديان والأحلام والرؤى .

إن أجل ما أخرجته لنا حضارة الإنسان ، بدأ حلماً . .

كل ما يقوم على الأرض من مدن وأبراج ومصانع ومعابد  
بدأ حلماً وهدياناً ورسوماً وخطوطاً مجردة في الفراغ . . بدأ هباً  
في عقل . .

من نبضة خيال ، قام العالم . .

كلمة السر هي هنا . .

في داخل نفوسنا ..

لو أننا فكرنا في نفوسنا ، لروعتنا أكثر من كل صنوف السحر  
ولكننا نغشى منطلقين في رحلة العمر . وعيوننا مقلوبة  
إلى الخارج .. لا ننظر إلى وراء .. ولا نتوقف لتساءل ..  
ولا نتأمل .

نلتهم الأسرار ، والأسرار فينا ..

ونبحث عن السحر .. ونحن السحر ..

« ننتظر المعجزة ، ونحن المعجزة ..

كيف يمكن أن تصبح هذه النفس حقة من تراب ، وتنتهي  
إلى لا شيء ..

« لا نموت .. كما أن البراهم لا يموت .. كما أنه عاش في  
كل الأمكنة . وفي كل الأزمنة .. كما أنه ولد في مختلف الحضارات  
كما تولد الكلمات . ليقول نفس الغايات .. وكأنه كان يعيش  
حضارات متعاصرة .. كذلك نحن يتعاصر فينا الماضي والحاضر ،  
ونرى سريان الزمن من منظور الأبدية .

لا موت هناك

ليس بعد الحياة . إلا حياة ..

وليس في الكون المتحرك نقطة ساكنة ..

الكل يتحرك في هورة أبدية لانهاية لها ..

كما تخرج الفراشات من الشرائق .. كما تخرج السويقات الخضرة  
من حبات القمح المدفونة أربعة آلاف عام .. كذلك تخرج من  
حياة ، إلى حياة ، في استمرار أبدي ..

أقول هذا لمن يعيشون بعدى ..

وأقول لمن يسألني عن متوسط عمر الإنسان ..

إنه اللانهاية ..

لوحة الملاف للفنان

حلمي الترنى

اللوحات الفساحية للفنان

إيهاب شاكر